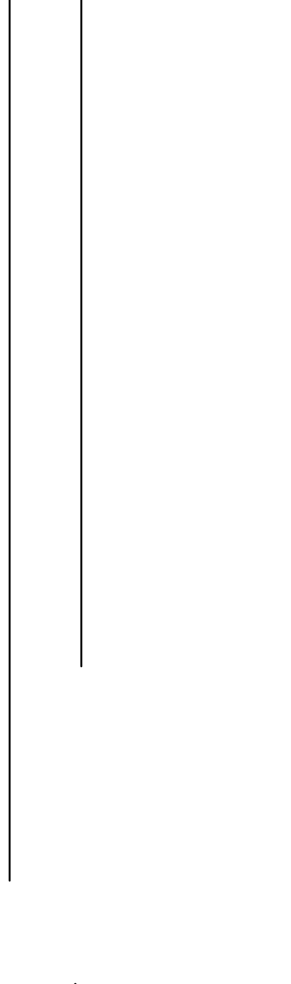


الإسلام والنفس الإنسانية

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع

٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .

ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الإسلام والنفس الإنسانية

محمد يونس هاشم



دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث
الكتاب : الإسلام والنفس الإنسانية .
المؤلف : محمد يونس هاشم
الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .
ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١
الطبعة : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ١٥٥٥٧

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس
الإسلام والنفس الإنسانية ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٩
ص ١١٥ – ١٧ × ص ٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٥٥٥٧
١– دراسات
٢– العنوان
ديوي ٢١٤.٥

المقدمة

إذا كانت الأشياء المادية المدركة بالحواس يسهل دراستها خاصة مع تقدم العلم الحديث وتشعب ميادينه وتطور أدواته فإن الأمور غير المدركة بالحواس ليست كذلك فالاختلاف فيها كبير ويصعب الوصول فيها إلى حقائق ثابتة متفق عليها ، وتختلف آراء الباحثين حولها حسب مشاربهم وثقافاتهم واعتقاداتهم وجنسياتهم بل وزمانهم ومكانهم كذلك .

ومن الأمور التي اختلف فيها العلماء والمفكرون والفلاسفة طبيعة النفس الإنسانية وماهيتها وسماتها ، وأنواعها ، وهل يمكن تزكيتها وكيف ، وما مصيرها .

وقد يسأل سائل فيقول إن هناك علماً للنفس يدرسها وقد وصل العلماء فيه إلى حقائق ثابتة ودراسات معملية متقدمة .

وعلم النفس لا يبحث في طبيعة النفس وماهيتها كما بحث فيها الفلاسفة والديانات فمجال علم النفس دراسة السلوك الإنساني وأنماط التفكير وجوانب الشخصية من أجل التوصّل إلى فهم ومعرفة سلوكيات البشر وتفسيرها، والتنبّؤ بها من أجل التحكّم فيها .

أما الذين درسوا طبيعة النفس وماهيتها فيعترفون بصعوبة الإحاطة والإلمام بها ومعرفة مكنوناتها وخباياها، والسبب في ذلك لا يعود لقلّة المعلومات المتوفّرة عنها إنّما لكثرتها وتشعّبها وتناقضها؛ فالنّفس البشريّة تتصف بشدّة غموضها، وكلّما ظنّ الباحثون والمفكرون

الفلاسفة أنّهم بلغوا حقيقتها وأحاطوا علماً بأسرارها تبيّن لهم أنّ ما عرفوا إلا القليل والقليل جداً من خباياها، فما هي النّفس، وما أنواعها، وهل هي الروح أم لا ، وما الذي يسعدها والذي يشقيها ، وما مصيرها بعد الموت؟

هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا الكتاب مهتدين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله .

***

ما هي النفس ؟

اختلاف العلماء والفلاسفة حول طبيعة النفس

إذا كانت الأشياء المادية المدركة بالحواس يسهل دراستها خاصة مع تقدم العلم الحديث وتشعب ميادينه وتطور أدواته ، ويكمن الوصول فيها إلى حقائق متفق عليها من الباحثين مع اختلاف مشاربهم وثقافاتهم واعتقاداتهم وجنسياتهم – فإن الأمور غير المدركة بالحواس ليست كذلك فالاختلاف فيها كبير ويصعب الوصول فيها إلى حقائق ثابتة متفق عليها ، وتختلف آراء الباحثين حولها حسب مشاربهم وثقافاتهم واعتقاداتهم وجنسياتهم بل وزمانهم ومكانهم كذلك .

ومن الأمور التي اختلف فيها العلماء والمفكرون والفلاسفة طبيعة النفس الإنسانية وماهيتها وسماتها ، وأنواعها ، وهل يمكن تزكيتها وكيف ، ومصيرها .

وقد يسأل سائل فيقول إن هناك علماً للنفس يدرسها وقد وصل العلماء فيه إلى حقائق ثابتة ودراسات معملية متقدمة .

علم النفس

علم النفس من أحدث العلوم فلا يزيد عمره عن مائة وخمسين عاماً فقط، تعرفه الدكتورة ألفت حقّي في كتابها مدخل إلى علم النّفس بأنّه: علم دراسة السلوك البشري من جميع جوانبه الظاهرة منه والباطنة، مثل الحركة والكلام والتفكير والشعور والأحلام، أمّا الدكتور عبد الفتاح دويدار فعرّف علم النّفس في كتابه مناهج البحث في علم النّفس على أنّه علمٌ يُعنى بدراسة النّفس البشريّة ونشاطاتها ودوافعها وانفعالاتها

ومكنوناتها ومحاولة فهمها وتفسيرها وتعديلها وتوجيهها وحل مشاكلها من خلال اتباع طرقٍ علميّةٍ منهجيّة، ويفسّر سلوك الكائنات الحيّة ويهدف إلى فهمه وتوضيحه والتنبؤ به .[1]

ولكن علم النفس لا يبحث في طبيعة النفس وماهيتها كما بحث فيها الفلاسفة والديانات فمجال علم النفس دراسة السلوك الإنساني وأنماط التفكير وجوانب الشخصية من أجل التوصّل إلى فهم ومعرفة سلوكيات البشر وتفسيرها، والتنبؤ بها من أجل التحكّم فيها .

أما الذين درسوا طبيعة النفس وماهيتها فيعترفون بصعوبة الإحاطة والإلمام بها ومعرفة مكنوناتها وخباياها، والسبب في ذلك لا يعود لقلّة المعلومات المتوفّرة عنها إنّما لكثرتها وتشعّبها وتناقضها؛ فالنّفس البشريّة تتصف بشدّة غموضها، وكلّما ظنّ الباحثون والمفكرون الفلاسفة أنّهم بلغوا حقيقتها وأحاطوا علماً بأسرارها تبيّن لهم أنّ ما عرفوا إلا القليل والقليل جداً من خباياها، فما هي النّفس، وما أنواعها، وهل هي الروح أم لا ، وما الذي يسعدها والذي يشقيها ، وما مصيرها بعد الموت؟

في سبيل معرفة النفس الإنسانية

اختلف تعريف النفس باختلاف من يعرِّفها فلا نكاد نجد لها تعريفاً متفقاً عليه بين الفلاسفة والمفكرين فقد أُطلق عليها مفاهيم عديدة من قبل الأديان المختلفة، ومن هذه المفاهيم: الروح، والعقل، واللاوعي.

كما تعرّف النفس على أنّها الروح التي تشغل جسم الإنسان، وفي حال خروج هذه الروح يموت الإنسان .

---

(١) انظر موقع " موضوع " تحت عنوان " علم النفس .

تُعرَف النفس أو الروح من قبل الكتب اليونانيّة القديمة بكونها شيئاً يخشى الإنسان فقدانه، وخاصةً في المعارك، ومن ناحية أخرى هي ما يخرج من أطراف الإنسان في حال الموت، وانتقالها للعالم السفليّ والحياة الآخرة، وكان يُعتقَد قديماً بأنّ الروح تتحوّل لظلّ في العالم السفليّ، كما أنّ وجود النفس في الجسم دليل على الحياة، وهي ما يتميّز به الجسم الحيّ من الجثة، وقد تمّ تحديث طرق الفكر اليونانيّ المتعلّق بالنفس البشريّة من قبل أفلاطون وأرسطو، حيث تمّ استخدام مصطلح النفس ليدلّ على معنى عاش، واشتمل هذا المفهوم ليدلّ على حياة الكائنات الأخرى وليس فقط على الإنسان .

تعريف النفس في اللغة

جاء في لسان العرب لابن منظور :

النَّفْس : الرُّوحُ ، قال أَبو إِسحق : النَّفْس في كلام العرب يجري على ضربين : أَحدهما قولك خَرَجَتْ نَفْس فلان أَي رُوحُه ، وفي نفس فلان أَن يفعل كذا وكذا أَي في رُوعِه ، والضَّرْب الآخر مَعْنى النَّفْس فيه مَعْنى جُمْلَةِ الشيء وحقيقته ، تقول : قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نفسه أَي أَوْقَتَ الإِهْلاك بذاته كلِّها وحقيقتِه ، والجمع من كل ذلك أَنْفُس ونُفُوس .

قال ابن خالويه : النَّفْس الرُّوحُ ، والنَّفْس ما يكون به التمييز ، والنَّفْس الدم ، والنَّفْس الأَخ ، والنَّفْس بمعنى عِنْد .

قال ابن بري : أَما النَّفْس الرُّوحُ والنَّفْسُ ما يكون به التمييز فَشاهِدُهُما قوله سبحانه : اللَّه يَتَوَفَّى الأَنفُس حين مَوتِها ، فالنَّفْس الأُولى هي التي تزول بزوال الحياة ، والنَّفْس الثانية التي تزول بزوال العقل .

وقال غيره الروح هو الذي به الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبض اللَّه نَفْسه ولم يقبض رُوحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت .

وقال الزجاج : لكل إنسان نَفْسان : إحداهما نَفْس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها يتوفاها اللَّه كما ، قال اللَّه تعالى ، والأُخرى نفس الحياة وإذا زالت زال معها النَّفَسُ .

والنَّفْس : الجَسَد .

وجاء في المعجم الوسيط :

النَّفْسُ : الرُّوحُ . ويقال : خرجت نفسُه ، وجاد بنَفْسِه : مات . و النَّفْسُ الدَّمُ . يقال : دفَقَ نَفْسَهُ. والنَّفْسُ ذاتُ الشيء وعينُه . يقال : جاءَ هو نفسُه أَو بنَفْسِه . والجمع : أَنْفُسٌ ، ونُفوسٌ.

ووضح أن العرب كانوا يخلطون بين النفس والروح والعقل والجسد ، والحقيقة أن النفس غير العقل ، والروح ، والجسد كما سنبين لاحقاً .

وظائف النفس البشرية

تمّ تصنيف وظائف النفس في تسلسل هرميّ متداخل، حيث يحتوي هذا التسلسل على ما يأتي:

١- النمو والتغذية والقدرة على الاستنساخ .

٢- الحركة والقدرة على الإدراك .

٣- الفكر والقدرة على التفكير.

أنواع النفس عند أفلاطون

يقسّم أفلاطون الروح إلى ثلاثة أنواع، وهي:

١- الروح العاقلة وهي الجزء من الروح الذي يهتمّ بالحساب والتفكير العقلانيّ، ولذلك تكمن مهمتها في توجيه الروح واتّخاذ القرارات، والفصل ما بين الصواب والخطأ .

٢- الروح الغريزيّة الشهوانية : وهي الجزء من الروح التي تهتم بالملذّات والشهوات، ولذلك تكمن مهمتها في اتباع وإطاعة الأوامر .

٣- الروح المعنوية أو النفسية وهي الجزء الذي يهتمّ بالمشاعر، وبالتالي يجب عليها أن توفّر الحوافز والأسباب .[١]

النفس عند الفلاسفة المسلمين

أن معظم من تكلموا في مفهوم النفس الإنسانية من الفلاسفة المسلمين توصلوا إلى أنها أمر معنوي لا يخضع للحواس، وهي مخالفة للجسم الإنساني، ولكنها مسيطرة عليه وموجهة لكل أوجه النشاط الإنساني . إلا أنهم لم يتوصلوا إلى هذه النتائج من خلال الاستقراء التام للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تناولت هذا الموضوع بكل تفاصيله ، وإنما جاءت أقوالهم في أغلبها ممتزجة بأقوال أفلاطون وأرسطو من جهة وبسبب التأويلات الجائرة للهدي الإلهي وللبيان النبوي من جهة أخرى . [٢]

وقبل أن نتحدَّث بالتفصيل عن ماهية النفس والمنهج القويم الذي رسمه الله تعالى لها لتسعد في الدارين لا بد أن نتكلَّم أولا عن مكونات الإنسان إجمالاً .

مكونات الإنسان

يتكون الإنسان من : نفس ، وروح ، وجسد ، وعقل ، وقلب .

---

(١) انظر موقع " موضوع " تحت عنوان " علم النفس .

(٢) د.محمد عمر الفقيه " مفهوم النفس الإنسانية بين النظريات الوضعية والحقائق القرآنية " .

وإليك بيان هذه المكونات :

١ – الروح :

وهى نفخة من روح الله .

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢]

وهى ما بها حَياةُ الأَنْفُسِ .

وهى تهفو إلى معرفة الله ، وتطمئن بالإيمان به وعبادته سبحانه .

ولا نعلم عن طبيعتها ومكانها شيئاً .﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٨٥]

والروح عند جمهور العلماء المسلمين هو مدبر البدن الإنساني ، ومبدأ حياته وهو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقولُ البشر .

ولقد خلط بعض الناس بين الروح والنفس والحقيقة أنهما مختلفتان . فالنفس هي ذات الإنسان ، أما الروح فنفخة الخالق ، جل وعلا ، فيه .

٢ – النفس :

وهى ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧ ، ٨]

والنفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك : (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك : فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت . [١]

---

(١) تفسير الفخر الرازي للآية الكريمة ج١٧ ص ٢٠

وكما أن النفس تتصف بالإيثار ، والإرادة ، والتواضع ، والطموح ، والكرم ، والعزة ، والكرامة ، والتعاون ، والرضا بالقليل ، وحب الخير للناس ... فإنها أيضاً تتصف بالأثرة ، والعجز ، والكبر ، والكسل ، والبخل ، والذل ، والأنانية ، والجشع ، والحقد ، والحسد ، والظلم ، والطمع ، والغرور ، والتفاخر ...

وتحتاج النفس إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

٣- العقل :

والعقل عند الفلاسفة هو بوجه عام ما يُميَز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، ويطلق على أسمى صور العمليات الذهنية بعامة وعلى البرهنة والاستدلال بخاصة وهو ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية ، وهو وسيلة المعرفة فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة . [١]

وعند علماء العربية ، العَقْلُ : العِلْمُ بِصفاتِ الأَشْياءِ ، من حُسْنِها وقُبْحِها ، وكَمَالِها ونُقْصانِها ، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْنِ ، وشَرِّ الشَّرَّيْنِ ، ويكونُ بمُقَدِّماتٍ يَسْتَتِبُّ بها الأَغْراضُ والمصالِحُ ، ولهَيْئَةٍ مَحْمودةٍ للإِنْسانِ في حَرَكاتِهِ وكَلامِهِ . والحَقُّ أنه نورٌ روحانِي ، به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضَّرورِيَّةَ والنَّظَرِيَّةَ. وابْتِداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ، ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغِ . [٢]

والعقل يحتاج إلى المعرفة ، والعلم ، وكشف المجهول ، والإبداع ، والاهتداء إلى حقائق الأشياء ...

---

(١) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية .

(٢) القاموس المحيط .

٤- القلب :

وهو مستقر الاعتقاد والإيمان ، وهو مجمع الوجدان والمشاعر ، وهو مستودع الأسرار ،كما أنه منبع الذوق الفني والإحساس بالجمال ، وهو متقلب : يحب ويكره، ويعمى ويبصر، يفرح ويحزن ، يطمئن ويخاف ، ويصح ويمرض ، ويَرق ويغلظ ، يرحم ويقسو ...

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]

﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

ولقد لوحظ عند نقل قلب إلى شخص من غيره تتغير صفاته ، في الحب والكره ، والرقة والغلظة ، والرحمة والقسوة بل في الإيمان والكفر...

تقول د. فريدة الحبيب : " ظاهرة غريبة تتعلق بالمرضى الذين أجريت لهم عمليات زراعة قلب أثارت انتباه علماء وأطباء الولايات المتحدة الأميركية، فبعد تغيير قلوبهم تغيرت أيضاً أمور جذرية عميقة في شخصيات هؤلاء المرضى، واكتسبوا بعض صفات أصحاب القلوب الأصلية " (١)

ويقول عبد الدائم الكحيل بعد دراسة متعمقة لمئات المرضى الذين نقلت إليهم قلوب طبيعية أو صناعية : " أن المريض بعد أن يتم استبدال قلبه بقلب طبيعي أو قلب صناعي، تحدث لديه تغيرات نفسية

---

(١) جريدة القبس الكويتية ١٩ مايو ٢٠١٠ .

عميقة، بل إن التغيرات تحدث أحياناً في معتقداته، وما يحبه ويكرهه، بل وتؤثر على إيمانه أيضاً " (١)

والقلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله .

" أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " [متفق عليه]

ويحتاج القلب إلى الإحساس بالأمن ، والحب ، والجمال ، والقبول ، والتناسق والنظام ...

٥- الجسد :

وهو البدن وما يحتوى عليه من الروح والنفس العقل والقلب والحواس وسائر الأعضاء وله حاجات فسيولوجية أساسية لازمة لحفظ الحياة وصحته النفسية وبقاء نوعه ، وهي نوعان :

١- حاجات فسيولوجية خالصة ، وهي التي تحفظ حياة الإنسان وإذا لم تُلَبَّ يفقد حياته مثل : الأكل ، والشرب ، والتنفس ، والإخراج ، والنوم ، والراحة .... لذا الله جلَّ وعلا خلق في الجسد مُنَبِّهات تُنَبِّهه إلى ضرورة إشباع هذه الحياة فإذا كان في حاجة إلى طعام شعر بالجوع ، وشعوره بالجوع يتزايد ويؤثر على نشاطه وجسمه ، وكذلك إذا كان الجسم في حاجة إلى الشرب شعر الإنسان بالظمأ وإذا لم يشرب ما يروي ظمأه يتزايد هذا الشعور فيجف حلقه ، وتجف شفتاه ويفتر جسمه، وإذا لم يتنفس شعر بالاختناق ، وإذا لم يخرج فضلاته شعر بآلام في بطنه وثقل .. وإذا لم يشبع الإنسان هذه الغرائز الفسيولوجية الخالصة مات .

---

(١) موقع عبد الدائم الكحيل " أسرار الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " على الإنترنت .

١- حاجات فسيولوجية ذات طابع اجتماعي ، وهي ضرورية لصحة الإنسان الفرد النفسية ، وبقاء الجنس البشري لكن إذا لم تُلَبَّ فإنها تؤثر بالسلب على حياة الإنسان الفرد النفسية لكن لا يفقد بسببها حياته ، وإن كانت تهدد بقاء الجنس البشري مثل : الجنس ، والأمومة ، والعمل ...

هذه هي مكونات الإنسان وهى كما بينا بينها اختلاف فلكل طبيعته الخاصة واحتياجاته الخاصة أيضاً ، ومع هذا الاختلاف لا يوجد بين هذه المكونات ثمة تناقض .

الفرق بين الاختلاف والتناقض

وهنا لنا وقفة للتفرقة بين مفهوم الاختلاف ومفهوم التناقض .

الاختلاف معناه تغاير في الخصائص والصفات لشيئين أو أكثر ولكن لا يعنى الاختلاف أن صحة أحد الأشياء المختلفة تكون بالضرورة بطلان للشيء الآخر بل ربما يكونان متكاملين ، فمثلاً : الليل خلاف النهار فهل يعنى هذا أن أحدهما حق والآخر باطل أم أنهما متكاملان في نظر العقل .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الألْبَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٠]

أما التناقض فمعناه أن صحة أحد المتناقضين بطلان للآخر ، فالحق نقيض بالباطل ، والإيمان نقيض الكفر ، والعدل نقيض الظلم ...

وإذا كان هذا كذلك فإن مكونات الإنسان متكاملة رغم اختلافها ، فاختلافها اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
[المؤمنون : ١٢- ١٤]

إن العقل لا يناقض القلب وكذلك الجسد لا يناقض الروح وإن من رأى بينها تناقضاً فأخذ بأحدها وطرح الآخر ضل وتطرف فما التطرف إلا الميل لإحدى الكفتين المتوازنتين .

ما معنى هذا ؟

معنى هذا أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً عقلاً وروحاً ونفساً وجسداً .

﴿ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨]

﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠]

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"

[متفق عليه]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

***

النفس في القرآن الكريم

سمات النفس في القرآن الكريم

ومن خلال استقراء الآيات القرآنية التي تناولت موضوع النفس الإنسانية فقد تبين أن النفس الإنسانية تعني ذات الإنسان بجانبيه المادي والروحي ، ولقد أطلق الله تعالى وصف النفس على الإنسان الذي اكتمل خلقه جسداً ، وروحاً ، وعقلاً ، وحساً وشعوراً .

كما إن النفس الإنسانية لها العديد من الصفات منها : أنها مخلوقة كما أنها تموت وأنها ستبعث للحساب ، كما أنها تجادل وتصبر وغير ذلك من الصفات.

ومن يتأمل الآيات التي تحدثت عن النفس في القرآن الكريم يتبين إن النفس الإنسانية في المفهوم القرآني تدل دلالة واضحة على الإنسان بكل مكوناته المادية والروحية .

ومن صفات النفس الإنسانية التي أشار إليها القرآن الكريم الصفات الآاتية:

١- أنها مخلوقة قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾

[النساء:١]

٢- أنها ليست خالدة إنما تموت قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٧]

٣- أنها تشتمل على صفات الفجور وصفات التقوى . قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٧-١٠]

٤- أنها مكلَّفة من قبل خالقها عز وجل . قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦]

٥- أنها هي التي تحاسب يوم القيامة وتجادل عن نفسها قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١]

٦- أن النفس أنواع :

أ- أمارة بالسوء ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف : ٥٣]

ب- ولوامة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة : ٢]

ج – مطمئنة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧ ، ٢٨]

وسيأتي لاحقاً بيان أنواع النفس بشيء من التفصيل .

فالنفس إذن هي ذات الإنسان وتشتمل على صفات الخير كما تشتمل على صفات الشر.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧-٨] .

وكما أنها تتصف بـ : الإيثار ، والتواضع ، والكرم ، والقناعة ، والعدل ... فإنها أيضاً تتصف بالأثرة ، والكبر ، والبخل ، والطمع ، والظلم ، ... وتحتاج إلى السلامة بعيداً عن المخاطر ، والاحترام ، والتقدير ، وأن تكون شيئاً مذكوراً ، والاستقلال ، والحرية ...

مظاهر تكريم الله تعالى النفس الإنسانية

لقد خلق الله تعالى النفس الإنسانية في أحسن تقويم .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [يالتين :٤]

﴿ وَفي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١]

وجعل الله تعالى النفسَ آيةً على بديع خلقه الهادية إلى الإيمان بالخالق العظيم.

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣]

ولقد كرم الله تعالى الإنسان فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١-٧٢]

وسخر له ما في السموات والأرض ، وآتاه من كل ما سأل .

﴿اللّهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِى في الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٤]

ولقد كرَّم الله تعالى الإنسان ورزقه من الطيبات وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً .

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء : ٧٠]

ونص القرآن الكريم في مواضع كثيرة على تساوى البشر جميعاً في أصل الخلقة فكل الناس خلقوا من نفس واحدة وهي آدم .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء﴾ [النساء : ١]

﴿وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام : ٩٨]

﴿هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]

حرمة دم النفس الإنسانية

ولقد صان الله تعالى حرمة النفس الإنسانية فحرم قتلها وجعل الله تعالى من قتل نفساً واحدة ، بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها ، صان حرمتها وحافظ على حياتها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]

والكلام عن حرمة النفس الإنسانية عام لا يختص بالمسلم فقط عكس ما زعم وعاظ السوء والجماعات الإرهابية من استحلال دم ومال غير المسلمين !! فراحوا يقتلون في خلق الله بغير حق وزعموا أن هذا جهاد في سبيل الله ، والله برئ مما يفعلون إنما هو جهاد في سبيل الشيطان ، فالآية الكريمة نصت على عموم النفس الإنسانية ولم تخصص نفس المسلمين .

ويجدر بنا في هذا المقام وقد كثر اللغط في هذا الموضوع ، وكثرت الجرائم التي راح ضحيتها الأبرياء بسبب الفهم الخاطئ لبعض

المتفيقهين المتنطعين ، كنت أقول يجدر بنا في هذا المقام أن نوضح من الذي يجب قتاله من أعداء الله والإسلام، ومن يجب صيانة دمائهم، وأعراضهم ، وأموالهم ؛ فقد أساء كثير من المسلمين فهم هذا الأمر وظنوا أن الإسلام حكّم السيف في علاقته بغير المسلمين فإما أن تسلم وإما أن تقطع رقبتك وهذا الفهم المناقض للإسلام بل المناقض لكافة الأديان والقوانين مازال مسيطراً على فهم بعض قساة القلوب خفاف العقول جهَّال الدين والواقع ، وهذا القول لا يقبل من مسلم أيام المد الإسلامي والفتوح فكيف يقبل من مسلم يعيش أيام الانحسار الإسلامي والاحتلال الصليبي والهوان !!

والعجيب أنه في الوقت الذي يعتذر فيه أعداء المسلمين عن أي قتلى أو جرحى من المدنيين أثناء قتالهم للمجاهدين من العرب[١] فإن بعض المسلمين يصرِّحون أن الإسلام يبيح قتل المدنيين من غير المسلمين بل وينسبون لأسامة بن لادن ، وهو شرف لم يدعيه ، قتل المدنيين في برج التجارة العالمي في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، ويقومون بمظاهرات تأييد له ، وتعلو الفرحة وجوههم ، ويقولون هذا هو الجهاد الإسلامي ، ويَصِم الغرب الإسلام كله بالإرهاب من جراء أقوال وأفعال هؤلاء المتخلفين " في فلوريدا في اللافتة التي يكتب عليها مواعيد الصلاة في الكنيسة – كتبت العبارة الآتية: " عيسى ينهي عن الاغتيال، سفر متَّى ٢٦ – ٥٢، محمد يأمر بالاغتيال، سورة ٨ –٦٥ " [٢] وتستغل أمريكا الموقف وتشن حربها ضد المسلمين الأبرياء

(١) هم يقولون ذلك بأفواههم فقط أنما هم ضالعون في هذه المذابح الموجهة للمدنيين راجع المذابح اليهودية للعرب منذ احتلال إسرائيل إلى اليوم في كتاب " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف .

(٢) الأستاذ سليمان البطحى : أمين عام اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ "ندوة البيان" www.albayan-magazine.com

المسالمين بدعوى أنهم إرهابيون ، ويساندها الغرب كله في غزو أفغانستان ، ثم تنفرد بقرار غزو العراق لنزع أسلحة التدمير الشامل من أيدي صدام الطاغية المسلم الإرهابي !

وهكذا فبدلاً من نشر دعوة الإسلام الداعية إلى الحب والسلام والتسامح يلصق به بعض المسلمين تهماً هو بريء منها تنفر الناس منه ، ويضطر علماء الدين ورجال السياسة والمخلصون للدفاع عن الإسلام وبيان سماحته علَّهم يصححون صورة الإسلام في أذهان غير المسلمين وخاصة الغربيين لكن هيهات فقد تلقفت القوى المعادية للمسلمين الطامحة في احتلال أراضية هذه الدعاوى المغرضة ونشرتها واتخذتها ذريعة لحرب المسلمين واحتلال أراضيهم واستغلال مواردهم وخيراتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل في تنطع هؤلاء المسلمين وكيد أولئك الغربيين .

أنواع الكفار ومن المستحق للقتل منهم :

لذا كان لزاماً علينا ونحن نتحدَّث عن حرمة قتل النفس والاعتداء عليها بيان من المستحقون للقتل ؟ ومن يجب على المسلمين صيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ؟

أولاً لابد من " التفريق بين أنواع الكفار؛ فإنهم على أربعة أقسام : ذميون، ومعاهدون، ومستأمنون، وحربيون .

الذمي: هو من أقام بدار الإسلام إقامة دائمة بأمان مؤبّد .

والعهد : هو عقد بين المسلمين وأهل الحرب على ترك القتال مدّةً معلومة .

والمعاهدون : هم أهل البلد المتعاقد معهم .

وأهل الحرب : هم أهل بلاد الكفر التي لم يجرِ بينهم وبين المسلمين عهد .

وأما المستأمن : فهو الحربي الذي يدخل دار الإسلام بأمانٍ مؤقت لأمرٍ يقتضيه .

فالفرق بين الحربي والمعاهد أن الحربي ليس بينه وبين المسلمين عهد ولا صلح، بخلاف المعاهد .

والفرق بين الذمي والمستأمن أن الذمي هو من يقيم إقامة دائمة بأمان مؤبد، أما المستأمن فحربي دخل بلاد الإسلام لغرض متى انتهي ذلك الغرض خرج لبلده .

الوفاء بالعهد

والمعاهد والذمي والمستأمن جميعهم معصومو الدم ، لا يجوز الاعتداء عليهم ولا التعرّض لهم . قال تعالى : ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِم﴾ [التوبة : ٤] .

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " [رواه البخاري]

وقد عاهد النبي ﷺ أصنافاً من المشركين كبني قريظة وبني النضير، وهادن قريشاً في الحديبية على ترك القتال عشر سنين، وأن من جاء من قريش مسلماً رده النبي ﷺ إليهم . وهذا كله معلوم في كتب السنة والسيرة ."

قال اللّه تعالى ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾
[الإسراء : ٣٤]

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾
[النحل :٩١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة : ١]

التحذير من الغدر

وحذر النبي ﷺ من الغدر والخيانة العهد .

عن ابنِ عُمَرَ أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إنّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بنِ فُلاَنٍ " [متفق عليه]

وجعل النبي ﷺ من صفات المنافقين الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال " أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا :إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

ولقد كان النبي ﷺ مثالاً حيّاً على الوفاء بالعهد فقد رد النبي ﷺ من جاءه من قريش مؤمنا وفاءً بعهده مع قريش وقال النبي ﷺ لأبى جندل الذي أتاه مسلماً في الوقت الذي كان يكتب فيه صلح الحديبية " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم " (١)

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، وأرسلت قريش رجلين في طلبه " قالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به " واستطاع أبو بصير أن يقتل أحد الرجلين وعاد إلى المدينة وقال للرسول " يا نَبِيَّ اللَّهِ، قدْ واللَّهِ أوْفَى اللَّهُ

(١) ابن كثير " البداية و النهاية " ج ٤ ص ١٩٣ .

ذِمَّتَكَ، قدْ رَدَدْتَنِي إليهِم، ثُمَّ أنْجَانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النبيُّ ﷺ " ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ (مُحَرِّك لها ومُوقِد لنارها) لو كانَ له أحَدٌ "، فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إليهِم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سِيفَ البَحْرِ قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلَّا لَحِقَ بأَبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمعتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوَالَهُمْ، فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النبيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ باللَّهِ والرَّحِمِ، لَمَّا أرْسَلَ، فمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النبيُّ ﷺ إليهِم " (١)

ويروى حذيفة بن اليمان سبب تخلفه عن القتال هو وأبيه في غزوة بدر وكان المسلمون في حاجة ماسة له فقد كان عدد المسلمين ثلث عدد الكفار فيقول : ما مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قالَ: فأخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قالوا: إنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: ما نُرِيدُهُ، ما نُرِيدُ إلَّا المَدِينَةَ، فأخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ معهُ، فأتَيْنَا رَسولَ اللهِ ﷺ، فأخْبَرْنَاهُ الخَبَرَ، فَقالَ: انْصَرِفَا، نَفِي لهمْ بعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عليهم. " [رواه مسلم]

لقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بعهد الكفار المحاربين وهو في مسيس الحاجة إلى رجل فإذا به يرفض اشتراك رجلين وفاءً بعهد الكفار الذين جاءوا لقتاله ويقول "نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم" .

أي دين هذا ؟! وأي رجل هذا ؟! وأي خلق هذا ؟!

إنه دين الإسلام الذي جاء به صاحب الخلق العظيم محمد سيد الأنام ﷺ وكانت نتيجة الإيمان بالله والتمسك بأخلاق الإسلام وعلى رأسها

(١) تفسير ابن كثير " ج ٧ ج٣٥٤ .

الوفاء بالعهد أن نصر الله تعالى الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين . وهكذا كان صحابة الرسول الكرام محافظين على الوفاء بالعهد فعن " جُوَيْرِيَةَ بْنَ قُدَامَةَ التَّمِيمِى قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ " [رواه البخاري]

ولا يجوز للمسلمين بعد أن عاهدوا المشركين أن يطلبوا منهم الزيادة وفي هذا يقول الإمام الشوكانى : " لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبين الكفار على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العقد وهما محرمان بنص القرآن والسنة " (١)

ولقد نهي الله تعالى عن قتال الكافر : الذمي والمعاهد والمستأمن بل أمر بالإحسان إليه وعدم ظلمه .

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

[الممتحنة : ٨]

قال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ، أي غير منسوخة ، واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبي ﷺ : هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة ؟ قال: "نعم" (متفق عليه). وقيل : إن الآية فيها نزلت . روى أن أبا بكر الصديق طلّق امرأته قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبى بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبى بكر الصديق قُرْطاً وأشياء؛ فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله ﷺ

---

(١) الشوكانى " نيل الأوطار " الجزء الثامن باب الأمان والصلح والمهادنة .

فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين". ذكر هذا الخبر الماوردى وغيره، وأخرجه أبو داود الطيالسى في مسنده " (١)

ومن عظمة الإسلام أن ساوى بين حرمة الذمي ، هو من أقام بدار الإسلام إقامة دائمة بأمان مؤبّد من غير المسلمين ، وحرمة المسلم في الدم والمال والعرض .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة : ٤٥]

" قال الكوفيون والثوري: يقتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي، واحتجوا بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى" فعم، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]

قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم، فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه. واتفق أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبى ليلى على أن الحر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به ، وهو قول داود، وروى ذلك عن على وابن مسعود ، وبه قال سعيد بن المسيب وقتادة وإبراهيم النخعى والحكم بن عيينة " (٢)

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٥٩ .
(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٦ .

ويعرِّف النبي ﷺ المسلم بأنه من سلم الناس – مسلم أو غير مسلم – من أقواله المحرمة : الغيبة والنميمة والكذب والبهتان والشتم واللعن ... ومن يده : بالقتل والضرب والعدوان والهدم .

ويجعل النبي ﷺ المؤمن هو من يحافظ على دماء الناس، مسلمين وغير مسلمين، كما أن من صفات المؤمن المحافظة على أموال الناس كل الناس : المسلمين وغير المسلمين .

" المسلمُ مَن سَلِمَ الناسُ مِن لسانِه ويَدِه، والمؤمنُ مَن أَمِنَه الناسُ على دمائِهم وأموالِهم " [صحيح النسائي]

يا له من دين عظيم ذلك الدين الذي يأمر أتباعه بالمحافظة على أرواح الناس وأموالهم وأن يكفوا عنهم ألسنتهم وأيديهم ليت غير المسلمين يفهمون هذا بل ليت المسلمين يفهمون هذا ويطبقونه ، نقول هذا لأن بعض المسلمين يستحلون دماء غير المسلمين وأموالهم ويعتبرون غير المسلم عدواً مستباح الدم والمال ، ومن هؤلاء جماعة تسمى " الشوقيون " الذين دأبوا على قتل وسرقة غير المسلمين وذات مرة قرأ نائب أمير جماعة الشوقيين ويسمى " عادل محمد عبد الباقي " في كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي أن النبي في الهجرة سمح لكل الصحابة بالهجرة إلا لأبى بكر لأنه سيكون رفيقه في الهجرة " أما عليٌّ فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدى عنه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته " [1]

وأدرك عادل محمد عبد الباقي خطأ ما كان يفعله ؛ فالنبي لم يستحل أموال الكفار الذين كذبوه وظاهروا عليه وأخرجوه من أحب بلاد الله إليه،

---

(١) محمد الغزالي "فقه السيرة " ص ١٧٣ .

وجعل عليّاً رضى الله عنه يتخلف عن الهجرة ليرد أماناتهم إليهم ! حاول عبد الباقي أن يقنع شوقي أمير التنظيم بما قرأه من سيرة المصطفي ﷺ لكنه لم يقتنع أو أقتنع لكنه قال : إن الأمر قد خرج من يده فكيف يَعْدِل عن رأيه الذي أفتى به الجماعة وقاموا بالاستيلاء على كثير من الأموال بمقتضاه ! لكن عبد الباقي إذ عرف الحق أبى أن يستمر في الباطل فترك شوقي وجماعته وسلَّم نفسه لرجال الأمن الذين اعتبروه شاهد ملك وأطلق سراحه بعد الإدلاء باعترافه أما شوقي ورفاقه فوقعوا صرعى بنيران أجهزة الأمن .

أرأيتم الفرق بين العالم الفاهم كالشيخ الغزالي ، وبين الجاهل المتطرف كشوقي ورفاقه من الجهلة الحمقى بل من المجرمين الذين اتخذوا من الدين ستاراً للممارسة جرائمهم .

توصية خاصة بأهل الكتاب :

وهناك توصية خاصة بأهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بالإحسان إليهم .

فقد أمر الله في كتابه العزيز بالإحسان إلى أهل الكتاب حتى بعد إصرارهم على عدم الدخول في الإسلام والتمسك بدينهم ، وأحل للمسلمين مآكلتهم وتبادل الإهداء بالأطعمة .

بل يذهب الإسلام إلى ما هو أكثر من هذا حيث أحل الله تعالى زواج المسلم من الكتابية على ما للزواج من مودة ورحمة ، وحسن المعاشرة ، وائتمان على العرض، والأولاد ...

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ

مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥]

وشدد النبي ﷺ في تحذيره من إيذاء أهل الكتاب بظلم أو بنقص حق أو بتكليفهم ملا يطيقون ، أو بالأخذ منهم شيئا بغير طيب نفس فقال "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه (أي خصيمه) يوم القيامة".حديث صحيح [رواه أبو داود]

والمدهش أن النبي ﷺ لا يكتفي بحسن معاملة أهل الكتاب وهم أحياء فقط بل يراعى إنسانيتهم بعد الموت حتى لا يظن ظان أن الإسلام إنما كان يرمى من حسن معاملتهم وهم أحياء ترغيبهم في الدخول في الإسلام فقط فها هو النبي يقوم لجنازة يهودي عندما مرت به ويستنكر على من ظن أن نفس اليهودي بلا حرمة قوله .

وهذا في الصحيحين من حديث قيس بن سعد وسهل بن حنيف قالا " إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة، فقام، فقيل: إنه يهودي، فقال أليست نفساً ؟ " (١)

ولم يشرع الإسلام القتال إلا رداً للعدوان على الدين أو النفس أو الوطن فيقول تعالى : ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩١]

ويجعل الله تعالى العدوان فقط على الظالمين أما المسالمون فلا عدوان عليهم مهما كانت عقائدهم . ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٣]

---

(١) " اليهود والصليبيون الجدد " للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر ص ٥٢

وجعل الله تعالى تقوى الله هي مقياس التفاضل بين الناس وليس أحسابهم وأنسابهم وأموالهم .. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣]

وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال:

" يا أيُّها النَّاسُ ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لِعَربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربِيٍّ ولا لِأحمرَ على أسودَ ولا لِأسودَ على أحمرَ إلاَّ بالتَّقوى أبلَّغتُ قالوا بلَّغَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ثمَّ قالَ أيُّ يومٍ هذا قالوا يومٌ حرامٌ قالَ أيُّ شهرٍ هذا قالوا شهرٌ حرامٌ قالَ أيُّ بلدٍ هذا قالوا بلدٌ حرامٌ قالَ إنَّ اللَّهَ قد حرَّمَ بينَكَم دماءَكم وأموالَكم – قالَ ولا أدري قالَ أو أعراضَكم أم لا - كحُرمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا في بلدِكم هذا أبلَّغتُ قالوا بلَّغَ رسولُ اللَّهِ ﷺ قالَ ليبلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ " [صحيح أحمد]

فلا تفاضل في الإسلام إذن بين نفس ونفس إلا بالتقوى وليس بالجنس والمال والسلطان والجاه .

إن الإسلام لا ينتصر بعدد ولا بعدة – والمسلمون مأمورون بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة – إنما يتنصر بقوة الإيمان وتمسك المؤمنين بتعاليم الإسلام ومبادئه وها نحن هؤلاء كثيرون " إن عدد المسلمون في العالم نحو ١.٨ مليار مسلم؛ أي ما نسبته ٢٥.٢٢ % من سكان العالم، تحتلون مساحة ١٩% من مساحة العالم تقريباً، ويعيشون في ٥٤ دولة إسلامية، وقيمون في ١٢٠ مجتمعاً في العالم ومع أننا كثير لكن " كثاء السيل " لأنه دب فينا الوهن " حب الدنيا وكراهية الموت"(١)

---

(١) قال رسول الله " يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِّ أُفُقٍ ، كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها ، قيل : يا رسولَ اللهِ ! فمِن قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهَنُ في قلوبِكم ، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ من قلوبِ عَدُوِّكم ؛ لِحُبِّكُمُ الدنيا وكَرَاهِيَتِكُم الموتَ " [رواه أحمد وأبو داود]

كما أخبر سيد المرسلين .

والحربي هو الوحيد الذي يقتل لأنه جاء بجيوشه وعدته وعتاده معتدياً على دماء المسلمين ومغتصباً لأرضهم ومنتهكا حرماتهم بالقوة .

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠]

قال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم . [١]

ويدخل في ذلك تحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول اللّه ﷺ كان يقول: " اغزوا في سبيل اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع". وعن ابن عباس قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا بعث جيوشه قال: "اخرجوا باسم اللّه قاتلوا في سبيل اللّه من كفر باللّه، لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع" [رواه أحمد وأبو داود] وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازى النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول اللّه ﷺ قتل النساء والصبيان " .

ويجب على ولى الأمر أن يعد الجيوش للدفاع ضد المعتدين وأن على كل مسلم المساهمة بقدر ما يستطيع في صد المعتدين تحت إشراف أولياء الأمور وألا يتصرف منفردا حتى لا يفسد خطط وتدابير أولياء الأمور فيجب على كل مسلم راغب في مقاومة أعداء الله ألا يخالف

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٤٨ .

أولياء الأمر المختصين بذلك وأن يلتزم بما يأمرونه به ولا يُتْرَك الأمر فوضى يفعل كل إنسان ما يراه صحيحاً فإن مثل هذا يشتت القوى وتكون عواقبه وخيمة كما يحدث الآن من بعض الأفراد والجماعات الذين يقتلون ويخربون ويدمرون دون موافقة أولى الأمر مما أساء للإسلام وللمسلمين جميعاً .

فإن طلب الأعداء الصلح فيجب إجابتهم إليه حقناً للدماء بشرط أن يكون السلام شاملاً وعادلاً .

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٠، ٦١]

﴿وإن جنحوا﴾ أي مالوا {للسلم} أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول اللّه ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وبعض الناس يريد أن يحاسب غير المسلمين على نواياهم فيقول لك إنهم يضمرون لنا الشر ويتربصون بنا الدوائر والله تعالى يعلمنا أن نعامل الناس بالظاهر وألا نتهم الضمائر فإن أراد أعداء المسلمين السلم سالمناهم وإن كان ينون خداعنا بهذا السلم فإن الله تعالى تكفل لنا بالنصر .

﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٢]

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب قوله : " إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رَسُول ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما

ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، اللَّه يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة " [رَوَاهُ البخاري]

جزاء قتل النفس المؤمنة

هذا عن حرمة قتل غير المسلمين فإن كانوا مسلمين فالحرمة أشد فقد جعل الله تعالى عقوبة من يقتل مؤمناً متعمداً الخلود في النار وغضب من الله أكبر ولعن من الله أشد .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

والنبي يجعل مجرد حمل السلاح على المسلم منافاة للإسلام .

وعن النبي ﷺ قال : " من حمل علينا السلاح فليس منا "

[متفق عليه]

وحرم الله تعالى قتل النفس وجعل جزاء المنتحر الخلود في النار .

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً﴾ [النساء :٢٩]

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " مَن تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهو في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَن تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَن قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بِهَا في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا. " [متفق عليه]

وقال ﷺ " مَن قَتَلَ نَفْسَهُ بشيءٍ في الدُّنْيا عُذِّبَ به يَومَ القِيامَةِ، ومَن لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهو كَقَتْلِهِ، ومَن قَذَفَ مُؤْمِنًا بكُفْرٍ فَهو كَقَتْلِهِ " [متفق عليه]

وقال رسول اللّه ﷺ : " كانَ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ به جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فأخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بها يَدَهُ، فَما رَقَأَ الدَّمُ حتَّى مَاتَ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عليه الجَنَّةَ. " [متفق عليه]

القصاص في الإسلام

وجعل الله تعالى القصاص شريعة للناس فالنفس بالنفس ، والعين بالعين ...

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥]

فمن قتل يقتل ولا يقتل أحد سواه ، رداً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قُتِل من لم يَقْتُل، وتقتل في مقابلة الواحد مائة، افتخاراً واستظهاراً بالجاه والمقدرة، فأمر اللّه سبحانه بالعدل والمساواة، وذلك بأن يُقْتَل من قَتَلَ، فتفقأ العين بالعين والأنف بالأنف والسن بالسن وتقتص الجراح بالجراح .

بل حرم الإسلام كل اعتداء على المسلم

قال رسول اللّه ﷺ : " المسلِمُ أخو المسلِمِ لا يخونُهُ ولا يَكذِبُهُ ولا يخذلُهُ كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ عرضُهُ ومالُهُ ودمُهُ التَّقوى هَهنا بحسبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحتقرَ أخاهُ المسلمَ " [رواه الترمذي]

فالمسلم لا يخون أحداً وخيانته لأخيه المسلم أشد ، وكذلك المسلم لا يكذب أحداً وكذبه على أخيه المسلم أشد ، والمسلم لا يعتدي على حرمة

دم أحد وحرمة دم المسلم أشد ، ويكفيه من رذائل الأخلاق احتقاره أخيه المسلم .

فعن النبي ﷺ أنه قال: " المسلِمُ من سلمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ والمؤمنُ من أمنَهُ النَّاسُ على دمائِهم وأموالِهم والمُهاجرُ من هجرَ السَّيِّئاتِ والمجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ للَّهِ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]

ويجعل النبي ﷺ شتيمة المسلم خروج عن طاعة الله ، وقتاله كفر بالله، ورفع السلاح في وجهه موجب للطرود من رحمة الله .

وقال رَسُولُ اللَّه ﷺ :" سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُهُ كُفرٌ " [متفق عليه]

وقال ﷺ " مَن أشارَ إلى أخِيهِ بحَدِيدَةٍ، فإنَّ المَلائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حتَّى يَدَعَهُ، وإنْ كانَ أخاهُ لأَبِيهِ وأُمِّهِ " [متفق عليه]

أين هذا الهدى النبوي في حياة الناس ؟

إن المسلمين في عالم اليوم لَهُم أكثر شعوب الأرض ظلماً بعضهم البعض ،ومكراً بعضهم ببعض ، واستغلالاً بعضهم البعض ، وسباباً بعضهم البعض ، وإن المسلم ليتعرض في اليوم الواحد لعشرات الإيذاءات من إخوانه المسلمين بدأً من خروجه من بيته إلى عودته إليه، إذ يؤذيه زحام المواصلات ، ودخان السجائر فيها وسباب الركاب ، يؤذيه ظلم كبار المسئولين وإهمال صغارهم ، يؤذيه فوضى المرور ، وقذارة الشوارع ، وضجيج مكبرات الصوت وآلات التنبيه ، يؤذيه الرشاوى والمحسوبية والواسطة في التعيين في الوظائف المهمة ، وقصر العلاوات والترقيات على المحاسيب والمنافقين ، يؤذيه اختلال الموازين، وجشع التجار والبائعين ، يؤذيه عرى النساء وفساد الشباب .

أنواع النفس

النفس الأمارة بالسوء

وهي النفس المجبولة على الشهوات المهلكة والأهواء المضلة .

﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف : ٣٥]

فهي التي تحرِّض صاحبها على المعاصي والآثام وتحضه على البغي والظلم .

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَي بِاللّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٧٩]

وقد تحضه على ارتكاب الجرائم والقتل وسفك الدماء بغير الحق .

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ويجب على المسلم أن يقهر نفسه الأمارة بالسوء ويلزمها قبول ما جاء به الشرع، وينهاها عن اتباع الهوى حتى تكون الجنة مأواه .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهي النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هي الْمَأْوَى﴾ [النازعات : ٤١– ٤٢] .

النفس اللوامة

وهي نفس المؤمن تلومه على ما قد يقع فيه من أخطاء " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون " [رواه أحمد وغيره]

كما تلومه على عدم استكثاره من الخير .

﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة : ٢]

قال مجاهد: " هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه ".

النفس المطمئنة

وهي النفس الذاكرة لله دائما ، والنفس المطمئنة تعبد الله كأنها تراه وهذه المنزلة هي أسمى درجات الإيمان فطمأنينة القلوب وسكينتها منزلة أعلى من منزلة الإيمان ﴿هُوَ الذي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح : ٤]

ولن يصل إليها المؤمن إلا بذكر الله تعالى الدائم واعتياده المساجد ومدارسته لكتاب الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨]

ويقول النبي ﷺ : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه "

[رواه مسلم وأصحاب السنن]

لذا استحقت هذه النفس المطمئنة لطاعة الله وذكره أن تؤمّن يوم الفزع الأكبر والنجاة من عذاب القبر وتفوز بالفردوس الأعلى ورضوان من الله أكبر .

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر : ٢٧- ٣٠]

قال رسول الله ﷺ " إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتَعالَى يقولُ لأهْلِ الجَنَّةِ: يا أهْلَ الجَنَّةِ؟ فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ، فيَقولُ: هلْ رَضِيتُمْ؟ فيَقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى وقدْ أعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِكَ، فيَقولُ: أنا أُعْطِيكُمْ أفْضَلَ مِن ذلكَ، قالوا :يا رَبِّ، وأَيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذلكَ؟ فيَقولُ :أُحِلُّ علَيْكُم رِضْوانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا " [متفق عليه] .

***

ابتلاء الله النفس بالخير والشر

الدنيا دار ابتلاء وامتحان

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان للنفوس ليميز الله الخبيث من الطيب ، وابتلاء الله تعالى يكون بالشر كما يكون بالخير أيضاً .

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥]

وبعض الناس يظن إنعام الله تعالى عليه بمتاع الدنيا دليل رضا الله عنه ، كما يظن أن تضيق الله تعالى عليه في الرزق إهانة له ، وينكر الله تعالى على هؤلاء فهمهم الخاطئ هذا فيقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾

[الفجر :١٥- ١٧]

ويقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من اللّه إكرام له، وهو ليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ في الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٥- ٥٦]

وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق ، يعتقد أن ذلك من اللّه إهانة له، قال اللّه تعالى: ﴿كلا﴾ أي ليس

الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن اللّه تعالى يعطى المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة اللّه في كل من الحالين، إذا كان غنيّاً بأن يشكر اللّه على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر . [١]

وقبل الحديث عن حرية النفس الإنسانية ونجيب عن سؤال هل الإنسان مسير أم مخير ومفهوم الشفاعة نتحدث أولاً عن عقيدة القضاء والقدر لما لها من وثيق العلاقة بهذه القضايا .

القضاء والقدر

حقيقتهما ، الإيمان بهما ، وأثرهما في الفرد والمجتمع

معنى القضاء والقدر والفرق بينهما :

القضاء : لم ترد كلمة القضاء في القرآن الكريم وإنما ذُكِرت مشتقاتها في آيات كثيرة مستعملة في عدة معان منها : الحُكم ، الأمر ، الإخبار، والإرادة ، والخَلْق.

أما القَدَر فقد ورد في اللغة بعدة معان منه : الشيء المقَدَّر ، والعلم المحيط ، والترتيب ...

أما معناها في اصطلاح علماء الكلام فأرجح الآراء هي :

القضاء : إيجاد الله تعالى للأشياء مع الإحكام والإتقان على الوجه الأكمل .

القَدَر : علمه تعالى أولاً بما تكون عليه المخلوقات .

فالقضاء أخص من القدر ؛ لأن دائرة القدر أشمل وأعم ، فالقدر علم وتدبير ، والقضاء إيجاد .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٩٨ .

والفرق بين القضاء والقدر هو أن القدر أعم ، والقضاء أخص .

الإيمان بالقضاء والقَدَر :

الإيمان بالله تعالى يستوجب الإيمان بما قضى وقدَّر ؛ إذا أن كل شيء منه وصائر إليه ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾
[الحديد : ٢٢]

والإيمان بالقدر من أركان الإيمان يقول النبي ﷺ في حديث جبريل " الإيمانُ : أنْ تُؤمن بِاللهِ ومَلائِكتِه ، وكُتُبِهِ ، و رُسُلِهِ ، و تُؤمن بِالجنَّةِ و النَّارِ ، والمِيزانِ ، وتُؤمن بِالبعثِ بعدَ الموتِ ، وتُؤمن بِالقدَرِ خَيرِهِ و شَرِّهِ " فالإيمان بالله تعالى يقتضي الإيمان بقدره ، والرضاء بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على بلائه ؛ فذلك كله من تقدير الله وتدبيره ، وليس للعبد أن يعترض على خالقه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]

ثمار الإيمان بالقضاء والقدر :

١- المؤمن بقضاء الله وقدره يعيش في سعادة دائمة ؛ لأنه مطمئن دائماً على حاضره ومستقبله ، يأخذ في الأسباب ، ويترك تحقيق الآمال على الله تعالى {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ} [البقرة:١٥٥ - ١٥٧]

وقال النبي ﷺ " عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له. " [مسلم]

٢- المؤمن بالقدر لا تطغيه نعمة ، ولا تيئسه مصيبة ؛ لأنه يعلم أن كل شيء بقدر الله ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]

وعلى هذا فالإيمان بالقضاء والقدر يكسب الإنسان ثقة واطمئناناً تجعله سعيداً في حاضره ، ومطمئناً على مستقبله .

٣- الاعتقاد بالقضاء والقدر يكسب الإنسان كثيراً من الصفات المحمودة كالشجاعة ، والجرأة ، والكرم .

٤- يعلِّم الإنسان الثبات على الحق ، واحتمال المصائب والمكاره ، بل والتضحية بالنفس في سبيل الحق لأنه يؤمن أن الأجل مكتوب ، والرزق مكفول .

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]

فائدة الدعاء مع القضاء والقَدَر :

قد يقول قائل : ما دام كل شيء مقدَّر فما فائدة الدعاء ؟

أولاً : الله تعالى أمر الإنسان أن يدعوه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
[غافر : ٦٠]

ثانياً : الدعاء يفيد العبد في كل حالاته ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رَحِم قال رسول الله "ما منْ رجلٌ يدعو اللهَ بدعاءٍ إلا استُجيبَ لهُ، فإما أنْ يُعجِّل لهُ في الدنيا، وإما أن يدِّخرَ لهُ في الآخرةِ، وإما أنْ يكفِّر عنهُ ذنوبَهُ بقدرِ ما دعا ما لمْ يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ، أو يستعجلَ، قالوا يا رسولَ اللهِ،وكيف يستعجلُ ؟ قال : يقول دعوتُ ربي فما استجابَ لي"
[صحيح مسلم]

والدعاء إذا توفرت شروطه يرُدُّ القضاء بقضاء ، وكذلك القدر يقول تعالى ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]

الاحتجاج بالقدر هل ينفع صاحبه ؟

كثير من الناس يحتجُّون بالقدر ويقولون : ليس لنا في جميع الأفعال قدرة ، وإنما القدرة لله تعالى ، قدَّر الخير والشر وكتبهما علينا .

الواجب علينا أن نؤمن بالقدر وألا نحتجَّ به ، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً لقُبِل من المشركين ، ولكن الله تعالى كذّبهم وأبطل حجتهم ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

[الأنعام : ١٤٨]

ولو كان القدر حُجَّة ؛ لم تُقْطع يدُ سارق ، ولا قُتِل قاتل ، ولا أُقِيمَ حدٌّ.

الإيمان بالقدر لا يعفي العبد من المسئولية المترتبة على أعماله ، وكما أننا لا نقبل حُجَّة من يحتجُّ بالقدر في معاملاتنا كذلك لا ينبغي أن نجعل من قَدَر الله حُجَّة عند الله تعالى ؛ لأن الإنسان حر في أفعاله الاختيارية ، وأن هذه الحرية التي منحها الله له سيحاسبه عليها إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزَّلزلة : ٨]

وسيكون حسابنا بقدر النِّعم التي أنعم الله تعالى بها علينا ؛ فالعقل نعمة ، والمال نعمة ، والعلم نعمة، والأولاد نعمة ، وكلما زادت نعم الله تعالى علينا كلما كان حسابنا عليها أكبر وبالعكس يقول تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التَّكاثر:٨]

فلا يُعْقل أن يتساوى الناس في الحساب ما داموا غير متساويين في النِّعم ؛ لذا فعدل الله تعالى ورحمته أن نُحَاسب على ما نفعل .

عقيدة القضاء والقدر قَبْل الإسلام

الأديان السماوية نظرت إلى القَدَر على الوجه التالي :

اليهودية : القَدَر عندهم مشيئة الله يأمر وينهى ، ويُعْطِي ويَمْنَع ، ثم يرجِع عما أمر به وقضاه .

أما الديانة المسيحية : فقد ربطت بين خطيئة آدم ، وقضاء الموت عليه وعلى أبنائه من بعده ، وزعموا أن الأَكْلَ من الشجرة هو أصل الشرِّ في العالم الإنساني ، كَفَّارة هذه الخطيئة تكون بالموت الذي يصيب الجسد ، أما كَفَّارة الروح فلا تكون إلا بِفِدَاء السيد المسيح .

والإنسان في الأديان الوضعية وفي الديانتين : اليهودية والمسيحية ؛ قد يثاب أو يعاقب على غير فعله ، وبالتالي فهي كلها لا تحل مشكلة القدر على وجه حاسم تتَّفق عليه العقول .

وقد حلَّ الإسلام هذه المشكلة حلاً يرضي العقول ويطمئن النفس ، فقد قرَّر الحرية الإنسانية ، وقال بالمسئولية الفردية ، فالإنسان مسئول عن عمله فقط إن خيراً فخير أو شراً فشر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٦٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدَّثر:٣٨]

القضاء والقدر في الفِرَق الإسلامية

من المشاكل التي ظهرت مبكِّراً في الفكر الإسلامي مشكلة القضاء والقدر ، وفيها نجد آراء متضاربة:

فالجَبْرِيَّة : يرون أن الإنسان مُجْبر ولا اختيار له ، بينما يرى القَدَرِيَّة أن الإنسان حرٌّ مُخْتَار ، وأن الله تعالى لم يقدِّر الأشياء أزلاً ، ولم يعلمها إلا بعد حدوثها .

وإذا كان المُعْتَزِلَة يتَّفِقون مع القَدَرِيَّة في نسبة الأعمال إلى العبد وحرية إرادته فإنهم لم يبالغوا مثلهم في نَفْي القَدَر ، وإن كانوا يقولون : إن الله تعالى لم يُرد فعل الشر من العبد .

لا تزر وازرة وزر أخرى :

ومن رحمة الله أن تحاسب كل نفس بما قدمت ولا تأخذ بذنب غيرها .

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٤]

ولقد ضل أقوام جعلوا المعصية إرثا يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وجعلوا معصية آدم ، أكله من الشجرة المحرمة ، خطيئة توارثها بنو آدم عن أبيهم وتدنسوا بها قرونا طوال ، وأخيراً قرر الرب تطهير البشرية من هذه الخطيئة ، التي ارتكبها أبوهم ولا ذنب لهم فيها ، فأنجب ابناً وعاش هذا الابن بين الناس ولاقى كل ألوان العذاب من أجل أن يكفر عن الناس خطيئة أبيهم آدم ! وتنتهي حياته مصلوباً مكللاً بالشوك . فمن آمن بهذه العقيدة غفر الرب له خطيئة آدم وأورثه ملكوت السموات !! ومن لم يؤمن بها يظل مدنسا بخطيئة أبيه آدم ومصيره النار وإن لم يفعل أية معصية ، وفعل كل طاعة !!

وهذا الاعتقاد باطل في الإسلام لأنه فضلاً عن تنزيه الله تعالى عن أن يكون له ولد سبحانه فإن الله تعالى لا يأخذ أحداً بذنب غيره .

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٥٢]
﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفي ﴾ [النجم : ٣٩ – ٤١]
فالله تعالى من أسمائه العدل فكيف يحاسب الإنسان على ذنب ارتكبه آدم من آلاف السنين ! ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفي بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧]
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨]
ثم ما هذا الذنب الخطير الذي يريدون أن يصموا به جميع البشر فضلاً عمن ارتكبه وهو آدم أبو البشر ؟
إن القصة غير ما توهموا فالله تعالى عندما خلق آدم ، لم يكن آدم لينزل إلى الأرض التي خُلق ليكون خليفة فيها إلا بعد أن يتعلم بعض الدروس المهمة لحياته في الأرض " أخذ الله تعالى آدم وزجه إلى الجنة ولم تكن هذه الجنة التي أخذ الله تعالى إليها آدم وزوجه " جنة الآخرة " التي بها الثواب والعقاب بل كانت " مكاناً " يستر آدم وزوجه ليتعلما فيها ويتلقيا التدريب على الخلافة في الأرض " (١)
أول هذه الدروس درس معرفة أسماء الأشياء الموجودة في الأرض ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ [البقرة :٣١]
هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل ... كذلك لا بد من دروس في أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥]

---
(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى " من فيض الرحمن في تربية الإنسان " ص ٦٠

ودرس آخر في وجوب معصية الشيطان مهما وسوس بكلام ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠]

ودرس في أن المعصية تكشف ستر الله تعالى وتفضح صاحبها ﴿فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه : ١٢١]

ودرس في كيفية التوبة إلى الله من المعصية ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧]

وهذه الكلمات هي ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣]

وكانت نتيجة الندم على المعصية والاستغفار والإصرار على عدم العودة أن تاب الله تعالى على آدم ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧]

ولما أتم آدم دروسه أنزله الله تعالى إلى الأرض ليمارس المهمة التي خلقه الله تعالى من أجلها وهي عبادة الله تعالى وعمارة الكون ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١]

إن آدم تعلم حقائق الأشياء وسنن الله تعالى التي تحكمها وتضبط خيرها وشرها وتنظم نفعها وضرها .. وليس المراد بالتعليم أنه سبحانه أعطاه درساً في الكيمياء والطبيعة والفلك والطب ونحوها مما يضع في يده أزمة قوانين هذا لكون الأرض إنما المراد أنه بث فيه أسرار الفهم

والتميز والاستعداد الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض . [1]

إن آدم عندما كان في الجنة لم يكن مكلفاً بعد لأنه كان يتعلم ، فخطؤه إنما كان قبل التكليف .

هذه حقيقة الخطيئة التي وصموا بها البشرية قروناً متطاولة ، ولم تغفر إلا بان أنجب ربهم ابناً ليكفر بصلبه وعذابه خطيئة آدم !

لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته وإنما الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة ولله أن يفعل ما يشاء وقد قال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [2]

ولقد أكد القرآن الكريم في كثير من الآيات على أن الإنسان مجزى بعمله ولا يحمل وزر غيره ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء : ١٥]

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر : ١٨]

الإنسان مسير أم مخير ؟

لقد هيأ الله تعالى النفس طائعة لصاحبها : تقوى أو فجوراً .

---

(١) البهي الخولى " آدم عليه السلام " ص ١١٠

(٢) تفسير القرطبي " ج ١ ص ٣٢١

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧-٨]

ومن دعائه ﷺ : " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " [رواه مسلم والنسائي]

لذا لا عجب أن تتصف النفس بعدة صفات متناقضة ، وهي مهيأة لفعل كل هذه الصفات حسب رغبة صاحبها فهي كالطفل الذي ينشأ على ما كان قد عوده أبوه .

قول أبى ذؤيب :

" والنَّفْسُ رَاغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعِ "

وكما قال الإمام البوصيري :

والنفسُ كالطفلِ إن ترضعهُ شبَّ على حُبِّ الرضاعِ وإن تفطمْهُ ينفطمِ

ولقد ضل من ظن أن الإنسان مسير ولا حيلة فيما يفعل – من الجبرية – فالإنسان مخير فيما كلفه الله تعالى به وما سيحاسبه عليه .

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠]

فالإنسان مخير في إقامة العدل وفعل الإحسان وصلة الأرحام وفعل كل طاعة ، كما أنه مخير في فعل الفحشاء والمنكر والبغي وفعل كل معصية .

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٥١]

فالإنسان مخير في الإيمان بالله أو الشرك به ومخير في بر الوالدين أو عقوقهما ومخير في قتل النفس بالحق وبغير الحق ومخير في فعل الفواحش واجتنابها ... وعلى الجملة مخير في فعل أو ترك كل ما أمر الله تعالى أو نهي عنه . وهذه الأوامر والنواهي هي مناط التكليف وعليها الجزاء والحساب .

أما ما لا اختيار للإنسان فيه فلا يحاسب عليه فلا حساب على الميلاد والموت، ولا الشكل واللون .

إنما الحساب على ما للإنسان فيه اختيار كالأيمان والكفر إن بلغته رسالة نبي وإن لم تبلغه رسالة نبي كأهل الفترة فلا عذاب لهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء : ١٥]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِى بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس : ٤٧]

والحساب إنما يكون على أوامر الله تعالى ونواهيه .

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً * لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِى أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * ومن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾

[النساء : ١٢١- ١٢٤]

ومن عدل الله تعالى أنه لم يسو بين من آمنوا وعملوا الصالحات وبين من كفروا واجترحوا السيئات .

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس : ٤]

***

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

المسئول عن سلوك الإنسان

النفس الإنسانية هي ذات الإنسان ولها ظاهر هو الخَلْق (الجسد) ، كما أن لها باطن هو الخُلُق .

فالخُلُق هو صفة نفسية باطنية تصدر عنها أفعال الخَلْق (جوارح الإنسان) والله تعالى سخَّر الخَلْق لتنفيذ إرادة الخُلُق لذا لا يحاسب الإنسان على كيفية خلْق جوارحه لأن الإنسان لا إرادة له في خلقها إنما هي مخلوقة بإرادة الله تعالى وقدرته ، إنما الله تعالى يحاسب الإنسان على خُلُقه لأنه يصدر بإرادته الإنسانية وقدرته .

فالإنسان إذا سَرَق فيده غير مسئولة عن السرقة إنما هو خُلُقه لذا لا عجب أن تشهد الجوارح على الإنسان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصِّلت:٢١]

الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات

والله تعالى خَلَق الإنسان في أحسن تقويم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين:٤]

وصوره في أحسن صورة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر: ٦٤] فالله تعالى هو ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾

[الأعلى : ٢، ٣]

فالله تعالى قد خَلَق الإنسان – وسائر المخلوقات – وقوَّمه وعدَّله وجعله سَوِيًّا في إحكام واتساق مناسبين لما خُلِق له ، والله تعالى قدَّر للإنسان – وسائر المخلوقات – ما يُصْلُحه ثمَّ هداه إليه ﴿ .. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠] .

ولما كان الإنسان هو الذي قبل أن يكون عاقلاً مُخْتَاراً مُكَلَّفاً بشرع الله يُعَاقَب إذا عصى الله تعالى وظلم نفسه وغيره بدخول جهنم ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

[النازعات : ٣٦ – ٣٩]

ويُثَاب إذا أطاع الله ، وكفَّ نفسه عن الشهوات بالإقامة الدائمة في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

[الأحزاب : ٧٢]

لقد قبل الإنسان إذن أن يكون عاقلاً مختاراً مُكَلَّفاً ، لذا جعله الله تعالى مُهَيَّئاً لفعل الصالحات بإرادته وفعل السيئات بمشيئته ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وهذه النفس الإنسانية التي جعلها الله حرَّة مختارة عرَّفها الخيرَ والشرَ وما يصلحها وما يفسدها ، على لسان أنبيائه ورسله ، وما أرسله معهم من صحفه وكتبه ، وهيَّأها لفعل الخير والشر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ والفائز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة هو الذي اتَّبع رسل الله وما أتوا به من كتب مقدسة ، وطهَّر نفسه من المعاصي والآثام وألزمها بفعل الطاعات وعمل الصالحات

{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} والخاسر في الدارين من كفر بالله ورسله وكتبه وأغرق نفسه في المعاصي والشرور .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار بلاء وفتن وغرور للإنسان ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
[الأنفال : ٣٧]

أعوان الإنسان على الإيمان وحسن الخلق

ولقد جعل الله تعالى للإنسان أعواناً على الإيمان والطاعة :

١- الروح : وهى نفخة من روحه سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] وهى تهفو إلى معرفة الله، وتطمئن بالإيمان به وتسكن بعبادته جل وعلا والتحلي بصفاته سبحانه.
﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم : ٣٠]

٢- العقل : وهو ما يميز به الحق من الباطل ، الخير من الشر ، والحسن من القبيح " ويصف حجة الإسلام الغزالي العقل بأنه (أنموذج من نور الله) ويصفه الجاحظ بأنه (وكيل الله عند الإنسان) ومن هنا كانت أول كلمة من الوحي الإلهي على محمد ﷺ هي ﴿اقرأ﴾ تتجه إلى مخاطبة العقل " [1]

٣- القلب السليم : هذا القلب الذي جعله الله تعالى محلا لأمانة الدين، وفطره الله تعالى على حبه والافتقار إليه والعز في الذل له والخشية منه والتوكل عليه ، هذا القلب الذي على أصل الفطرة " التقى النقي الذي لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد " .

(1) د. محمود حمدي زقزوق " هموم الأمة الإسلامية " ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤- الأنبياء والرسل : الذين أنزلهم الله بالهدى ودين الحق وحسن الخلق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وليبشروا المؤمنين الصالحين بالجنة وينذروا الكافرين والعصاة بالنار .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام : ٤٨ – ٤٩] .

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] .

٥- شريعة الله ومنهاجه التي أنزلها على الرسل لتكون بمثابة الدستور الإلهي الذي يحتكمون إليه في الدنيا والذي يُحَاكَموا بمقتضاه يوم القيامة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة : ٤٨] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] .

أسباب شقاء الإنسان في الدنيا والآخرة

وكما أن الله تعالى جعل للإنسان أعواناً على الإيمان وحسن الخلق ابتلاه ببعض الفتن منها أربع جاءوا في قول الشاعر :

إني بليت بأربع ما سلطت * إلا لأجل شقاوتي و عنائي

إبليس والدنيا ونفسي و الهوى * كيف الخلاص وكلهم أعدائي

إبليس يسلك في طريق مهالكي * و النفس تأمرني بكل بلائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري * في ظلمة الشبهات و الآراء

وزخارف الدنيا تقول أما ترى * حسنى وفخر ملابسي وبهائي

وكان بلاء الله تعالى لإنسان ؛ ليعلم الذين آمنوا .

﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٠]

وليعلم الله الصابرين المهتدين .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ أُولَـئِكَ عَلَـيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِّـن رَّبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥–١٥٧]

وليعلم الله تعالى أي الناس أحسن عملاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود : ٧] .

أما المؤمنون فيسارعون في الإيمان ، وعمل الخيرات ، وتزكية النفوس مستجيبين لنداء الفطرة والعقل والرسل فتؤمن قلوبهم ، وتحسن أخلاقهم وتنفذ جوارحهم شرع الله .

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ﴾
[آل عمران : ١٩٣]

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن : ١- ٢] .

واستجابوا لأوامر الله واحتكموا لشرعه .

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ويزيدهم الله تعالى إيمانا وهدى .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم : ٧٦] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس : ٩] .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] .

ويحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات : ٧- ٨] .

أما أولئك الكافرون الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فإن الله تعالى لا يهديهم بل يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾

[النحل : ١٠٧ – ١٠٩]

وكذلك من ظلم نفسه باتباع هواه وجحد هدى الله ، ودسَّ نفسه في الرذائل .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٤٩ – ٥١]

واقعية شريعة الإسلام

إن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله ، وبقوته وضعفه ، محيطاً بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة ، وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء ، وبين الروح العلوية التي نُفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو الأخلاقي ، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي .

والإنسان كما أنه ناقص فهو في نفس الوقت قابل لاكتساب الكمال عن طريق الجهد الوارد في تعريف الإيمان بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥]

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

والقرآن يتبع التدرج في التقديرات الأخلاقية بدءاً من طلب فعل الخير دون زيادة إلى الترقي لبلوغ مستوى الكمال إلا ما نهاية متمثلاً في التضحية بكل شيء نفيس حتى النفس من أجل القيمة العليا الأغلى من الحياة حيث حققه الصحابة كأول تطبيق في حياة الأمة في موقعة بدر الكبرى .

إن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها إنها تقيم مجتمعاً سعيداً وقوياً ومتضامناً ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

وخلاصة القول إن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله .. والقرآن الكريم يعنى عناية فائقة بربط كل تعاليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها " (١)

وقبل الاستفاضة في أهمية الأخلاق وأثرها وتطبيقاتها نبدأ أولاً بتعريفها حتى نضبط المصطلح الذي نتحدث عنه ولا نبني أحاكمنا على مجهول أو مختلف في فهمه .

([1]) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " د. محمد عبد الله دراز ، تلخيص وإعادة صياغة وإعادة ترجمة محمد عبد العظيم علي دار الدعوة الطبعة الأولى ١٩٩٦ .

الدين حسن الخلق

ولقد مدح الله تعالى نبيهﷺ فقال :﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال" لَمْ يَكُنْ ﷺ فَاحِشًا ولَا مُتَفَحِّشًا، وقَالَ: قَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إنَّ مِن أَخْيَرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا. " [متفق عليه]

إن حسن الخلق اقرب الناس لمجلس النبي ﷺ في الجنة لأنه كان أقربهم لخلقه ﷺ في الدنيا ، أما سيء الخلق فهو أبعد الناس من النبي ﷺ في الآخرة .

" إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا ، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا : يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ ؟ قالَ : المتَكَبِّرونَ" [صحيح الترمذي]

"الثرثارون": الذين يكثرون الكلام تكلفاً ."المتفيقهون": الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم ويتفصحون فيه (وانتبه لصيغة التصغير، فهم يتفعلون الفقه والفهم وليسوا من أهله . "المتشدقون" : المتوسعين في الكلام من غير احتياط وتحرز .

قال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه. قال القاضي عياض: هو مخالطة الناس بالجميل والبشر والتودد لهم والإشفاق عليهم واحتمالهم والحلم عنهم والصبر عليهم في المكاره وترك الكبر والاستطالة عليهم ومجانبة الغلظ والغضب والمؤاخذة. (١)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي " ج ١٥ ص ٧٨

وكثيرة تلك الأحاديث في حسن الخلق منها : " إنَّ أَكملَ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا وخيارُكم خيارُكم لنسائِكم " [صحيح الترمذي]

وقال ﷺ " ما شيءٌ أثقلُ في ميزانِ المؤمِنِ يومَ القيامةِ مِن خُلُقٍ حسَنٍ، فإنَّ اللَّهَ تعالى ليُبغِضُ الفاحشَ البَذيءَ. " [صحيح الترمذي]

إن حسن الخلق هو الفارق بين التدين الحقيقي والزائف فإذا رأيت رجلا كثير الصلاة كثير الصيام كثير الكلام في الدين ومع ذلك سيء الخلق مع أهله وجيرانه ومع رؤسائه ومرءوسيه في العمل فاعلم أن تدينه زائف وهو مردود عليه .

فعن أبى هريرة قال : قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: يا رَسولَ اللهِ ! إنَّ فلانةَ تقومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهارَ و تفعلُ ، وتصدَّقُ ، وتُؤذي جيرانَها بلِسانِها ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ و سلم لا خَيرَ فيها ، هيَ من أهلِ النَّارِ . قالوا : و فُلانةُ تصلِّي المكتوبةَ ، و تصدَّقُ بأثوارٍ ، و لا تُؤذي أحدًا ؟ فقال رسولُ اللهِ : هيَ من أهلِ الجنَّةِ " [رواه أحمد وابن حبان والحاكم]

" الأثوار من الأقط " : قطع الجبن .

فليس مقياس التدين لحى طويلة ، ولا جلابيب بيضاء قصيرة ، إنما التدين الصحيح حسن الخلق .

فكثير ممن يتظاهرون بالتدين لا يسلم من أذاهم كل من خالطهم وتعامل معهم فهم بلاء في أي مكان حلوا به ، فإن أحدهم ليرمى أبويه بالفسق لأنهما يشاهدان التلفاز، ويرمى أخته بالفجور لأنها لا تلبس النقاب ، ويرمى أخيه بمعاداة السنة لأنه يلبس ملابس الفرنجة ولا يلبس الجلباب ، ويرمى جاره بالخروج على الدين لأنه لا يرسل لحيته ،

ويرمى رئيس دولته بالكفر لأنه لا يحكم بشرع الله ، كما يفهمه هو ، ويرمى المجتمع بالكفر لأنه قبلوا حكمه !!

وهكذا ما يحل صاحبنا في مكان إلا وأشعل المكان ناراً ، وأثار جدالاً، ومزق جمعا . مما يجعل الناس يتحاشونه ويتجنبون الكلام معه أو يتظاهرون بالاستجابة لما يقول : اتقاء شره ومنعا لجداله .

عن عائشة أنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ علَى النبيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قالَ: بئْسَ أخُو العَشِيرَةِ، وبِئْسَ ابنُ العَشِيرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النبيُّ ﷺ في وجْهِهِ وانْبَسَطَ إلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قالَتْ له عَائِشَةُ: يا رَسولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ له كَذَا وكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ في وجْهِهِ وانْبَسَطْتَ إلَيْهِ؟ فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : يا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَومَ القِيَامَةِ مَن تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّه" .[متفق عليه]

وأنا أعرف كثيراً من الناس يهشون لمثل هؤلاء المتنطعين اتقاء لشرهم، ومنعا لإيذائهم بالقول أو الفعل .

***

مسئولية النفس الأخلاقية

شروط المسئولية الأخلاقية والدينية

ونبدأ بدراسة شروط المسئولية الأخلاقية والدينية التي ترددت في كثير من الآيات القرآنية ، وتؤكد أولاً على الطابع الشمولي لمبدأ المسئولية الذي وسَّع القرآن نطاقه حتى شمل جميع المخلوقات العاقلة، دون تفرقة بين عقل إنساني ، وعقل " فوق إنساني " وبين عامة الناس وأشدهم ورعاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢، ٩٣]
﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف : ٦]
ولا شك أن المقصود هنا هي المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة .

وإن الحساب يوم القيامة لن يكون على جميع الأعمال الظاهرة والخفية فحسب ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ الله﴾
[البقرة : ٢٨٤]

وانما على جملة استخداماتنا لِمَلَكَاتنا ، ولكلِّ خير فطري أو مكتسب ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾
[الإسراء : ٣٦]

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم﴾ [التكاثر : ٨]

ويقول النبي ﷺ : " لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ ؟ " [صحيح الترمذي]

وتلخيص هذا كله نجده في قول النبي ﷺ " كلكم رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : وَالأمِيرُ رَاعٍ ، والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أهْلِ بيتِهِ ، وَالمَرْأةُ رَاعِيةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجها وَوَلَدهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "
[مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

فكل فرد في مجاله مسئول عن حسن سير الأمور التي وكلت إليه .

بيد أن المسئولية الأخلاقية والدينية ، لكي تكون شاملة ، لها شروط :

أ- الطابع الشخصي للمسئولية : المسئولية الأخلاقية والدينية مسئولية شخصية بحتة . وسوف نكتفي ببعض الآيات القرآنية التي تقرر هذا المبدأ الأساسي ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت﴾ [البقرة : ٢٨٦]

﴿مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [الإسراء : ١٥]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان : ٣٣]

يتضح من هذا أنه لا يمكن أن يحدث في مجال الثواب والعقاب أي تحويل أو تمديد أو مشاركة أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء . فضلاً عن الأجداد الأولين ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]

وهكذا بجرة قلم تمَّ استبعاد قضية خطيئة آدم . فالقرآن يرفض امتدادها على الناس أجمعين، ولا يرى أنها ذات طابع دنيوي كما تصفها العقيدة المسيحية.

كيف يحمَّل العصاة ذنوباً مع ذنوبهم ؟

يذكر القرآن الكريم حالتين كأنهما خرجتا على مبدأ المسئولية الفردية . فقد قال تعالى عن المذنبين :

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣]

كما صرح بأن ذرية المؤمنين سوف تعامل معاملة آبائهم إذا اتبعوهم في طريق الإيمان ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور : ٢١]

مما قد يوهم أن الثواب والعقاب لن يكونا تبعاً لجهد الفرد وحده ، وإنما قد يتأثر بعمل الآخرين .

نبدأ باستبعاد فكرة تحويل كامل يَحْرِم الفرد الرئيسي من ثواب جهده ، أو يفلت به من عقاب سيئاته . هيهات أن يحدث ذلك . فإن ذات النصوص التي ذكرت الحالتين تؤكد هذه الحقيقة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[العنكبوت : ١٢]

هي إذن إضافة من الثواب أو العقاب تأتي – فيما يبدو – من الخارج، زيادة على جزاء العمل الفردي . إلا أنه بعد هذا التوضيح لا يزال هناك ما يوهم بالتعارض مع النصوص التي تنفي أن ينسب للإنسان ما ليس من عمله .

توضح دراسة الحالة الأولى طريقة الإسلام في تصور المسئولية الفردية . فالإنسان ليس مسئولاً فقط عن الأعمال التي يؤديها بالتدخل الإيجابي المباشر ، وليس فقط عن القدوة التي تنتشر بين الناس بسبب مهابة صاحبها ، إنما عن كل مبادرة – حسنة أو سيئة – يكون لها آثار تتجاوز حدودها أو نتائجها المباشرة ، وفي الحديث " لَيْسَ مِنْ نَفْس تُقْتَلُ ظُلْماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوْلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

بل هناك أبعد من ذلك فنحن مسئولون أيضاً بصورة ما عن تصرفات غيرنا حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بالوسائل المشروعة لمنعهم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٨، ٧٩]

فالمسئولية الفردية هي من الامتداد حتى تكاد تندمج مع المسئولية الجماعية ، ولكنها ليست هي .

وليس هذا كل شيء فالنتائج البعيدة التي تحدثها أعمالنا الواعية في المجتمع تدخل في الحساب سلباً أو إيجاباً ، حتى بعد موت صاحبها " إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " [رواه مسلم] .

أما الحالة الثانية والتي يمثلها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾
[الطور : ٢١]

فلها تفسيرات عديدة تحاول أن تسوغ حكم الآية الذي يسوي في الواقع بين طرفين غير متساويين في الحق . ونسأل عما إذا كان في الآية الكريمة ما يفيد مثل هذه المساواة . إذ أن كلمة " ألحق " تفسر بمعنى " شبَّه " أو بمعنى " اتبع وضَمَّ " وهناك ما يدعو إلى الأخذ بالمعنى الثاني .

فإننا نجد آيات أخرى تعالج حالات شبيهة ولا تشير إلى معاملة على قدم المساواة وإنما مجرد مشاركة بلفظ " مع " ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وفي الحديث " أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] و" المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ] .

إنها حالة خاصة في إطار المفهوم العام ، إنها " الحب في الله " . وهي حالة الأبناء الذين لم يكتفوا ببنوتهم الطبيعية ، فأضافوا إليها " بنوة روحية " فلماذا لا يتحقق مثلهم الأعلى باجتماعهم في الله مع من كان قدوة لهم في الدنيا ، واتبعوه بدرجات متفاوتة في الكمال ؟ وإلا كان فصلهم إنكاراً لقيمة هذا الحب علماً بان هذا الاجتماع لا يمنع مطلقاً من وجود تدرج في الجزاء كالقطار الذي يقل طوائف مختلفة من المسافرين ، ومع هذا فالركاب فيها درجات : أولى ، وثانية ، وثالثة .

وهكذا لا تتعارض الآية مع المبدأ العام مبدأ المسئولية الفردية التي تظل فردية بكل معنى الفردية .

المفهوم الإسلامي للشفاعة يوم القيامة

ومن المفاهيم التي يتناقض فَهْمها الخاطئ مع المسئولية الفردية يوم القيامة مفهوم الشفاعة . فكثير من المسلمين يفهمون الشفاعة خطأ فيظنون أنهم ماداموا من أمة محمد فإنهم حتماً سيدخلون الجنة ولن يعرضون على النار ولن يدخلوها وإن قتلوا وزنوا وسرقوا وارتكبوا كبائر الإثم والفواحش بفضل شفاعة النبي ﷺ لن يدخل مسلم النار " فأمة محمد بخير " ، " واعمل اللي يعجبك وصلِّ على اللي يشفع فيك " !

وقد يثار اعتراض عند محاولة فهم " الشفاعة " على هذا النحو بحسب ما نراه في حياتنا الدنيا ، وهذا مخالف للمفهوم الإسلامي للشفاعة ؛ فالشفاعة لا تقبل في الكافر ولا فيمن غضب الله عليه .

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر : ١٨] .

فالذين ظلموا أنفسهم فارتكبوا المعاصي والآثام وخالفوا شريعة الله فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يسمع فيهم شفاعة ولا يقبل منهم فداء حتى يأخذوا جزاءهم .

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٤٨] .

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

حتى إذا أراد الله تعالى رحمة من أراد من أهل النّار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السّجود ، فقد حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السّجود ، فيخرجون من النّار وقد احترقوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون.

وجاء في الحديث الصحيح " أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذينَ هم أهلُها فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يحيَوْنَ ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم أو قال : بخَطاياهم حتَّى إذا كانوا فَحْمًا أُذِن في الشَّفاعةِ فجِيء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ (جماعات) فبُثُّوا على أهلِ الجنَّةِ ثمَّ قيل : يا أهلَ الجنَّةِ أفيضوا عليهم قال : فينبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ تكونُ في حَميلِ السَّيلِ "

[رواه مسلم وأحمد]

فالشفاعة يوم القيامة لمن يستحقون الشفاعة من أهل الخلاص وهي مقيدة بأمرين:

أولاً : إذن الله تعالى للشافع بأن يشفع لقوله تعالى :

﴿مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] .

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾
[طه : ١٠٩]

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] .

ثانياً : رضا الله تعالى عن المشفوع له لقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
[الزمر : ٤٤]

إذن الشفاعة بهذا المعنى تُسْبِغ شَرَفاً مزدوجاً على المدافع والمدافع ، ولكن هيهات أن تكون القضية دائماً موفقة إذ قد إذ قد يخطئ الشفيع في الوقائع فيسحب عندئذ شفاعته ، فيقال للرسول " فَيُقَالُ إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي " [البخاري] فإذا ما تكللت جهود الشفاعة بالنجاح فذلك لأن المشفع لهم يستحقون ثواب الله طبقاً لشرائعه ، وتكون الشفاعة فرصة لتتجلى الإرادة الإلهية .

الأساس القانوني لمسئولية النفس

يعلمنا القرآن الكريم أن أحداً لن يحاسب على أفعاله ما لم يكن قد علم بالأحكام مُسْبَقاً ويكون الإعلام بطريقين مختلفتين :

١- طريق داخلي (الروح ، والقلب ، والعقل) أو الفطرة .

٢- طريق خارجي رسل الله وكتبه المقدسة .

فقواعد القانون الأخلاقي ، في أكثر صورها شمولاً ، مُسَجَّلة في الفطرة الإنسانية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

[الرُّوم : ٣٠]

ولكي نتعرف على هذه الفطرة ، فما علينا سوى الاهتداء بأرواحنا التي هي نفخة من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢]

واستشارة عقولنا المبصرة المنزهة عن الهوى والعمى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾ [الحج : ٤٦] واستفتاء قلوبنا السليمة من المرض ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩]

فهل هذه المعرفة تكفي لتأكيد مسئوليتنا أمام الله تعالى ؟

أكثر مدارس أهل السنة يقرِّرُون أننا لسنا مسئولين أمام الله ولا حتى عن واجباتنا الأساسية إلا في حدود تعليم الله لنا بطريقة خاصة وإيجابية ويستندون في ذلك إلى نصوص القرآن ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٥]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص:٥٩]

فقد أوجب الله تعالى على نفسه أن يُعْلِم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]

لأن الله تعالى يرى أن من الظلم تعذيب القرى التي غفلت عن واجباتها لأنها لم تعرفها ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١]

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ *ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨،٢٠٩]

فإذا كان هذا شأن الأسوياء من الناس ، فما القول في الضمائر المحجوبة لأسباب طبيعية ؟ لقد ذكرت السنة النبوية هذه النقطة " رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ عن النائمِ حتى يستيقظَ وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ وعن المجنونِ حتى يعقلَ " [صححه الألباني] .

أما في حالة النسيان كظاهرة طبيعية خارجية عن إرادة الإنسان ولا ترجع إلى خطأ منه ، فهل يكون مقبولاً في منطق العدالة القائمة على واقع الأمور أن يكون مسئولاً عن مخالفته للقاعدة . بالطبع لا . فحين دعا المؤمنون ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة : ٢٨٦]

عرفنا حتى الآن العلاقة التي تربط الفرد المسئول بالقانون . ورأينا أن المسئولية لا تقرر ولا تجد مبررها في نظر القرآن إلا بشروط : أن تذاع شريعة الواجب ، وأن يعرفها كل ذي علاقة بها ، وأن تكون حاضرة في ذهنه وقت إنجازه العمل .

وبالإضافة إلى علاقتنا بالقانون " كعلامة معرفة " لنا علاقة أخرى بالعمل وهي " علاقة إرادة " والعلاقتان يضمهما الضمير الأخلاقي للفرد في وقت واحد . وإن المحكمة التي مهمتها أن تنسب الأعمال إلى الأشخاص لا تستطيع أن تصدر حكماً عادلاً دون أن تأخذ في الحسبان الطريقة التي تقع بها هذه الأعمال وعلاقتها بأشخاصنا .

وبـادئ ذي بـدء يجـب أن نـستبعد العمـل الـلا إرادي مـن مجـال المسئولية، حيث تنقصه الإرادة كعنصر تكويني للشخصية .

إن المسئولية ليست مجرد نسبة العمل إلى إنسان جملة ، وإنما لا بد من وجود صفة مميزة ، وهي أن يترتب على العمل وجوب الثواب أو العقاب . وبالتالي فمن الضروري أن يكون العمل الإرادي متصوراً في ذهن صاحبه بنفس الطريقة وبنفس وجهة النظر التي تصورها عنه المشرع . [١]

***

[1] لمزيد من التفاصيل حول المسئولية راجع كتاب د. محمد عبد الله دراز " مختصر دستور الأخلاق في القرآن الكريم " الفصل الخاص بالمسئولية مرجع سابق .

تزكية النفس

هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ؟

لقد جاء في أقوال الرسول ﷺ ما يثبت التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها :

ومنها " النَّاسُ معادِنُ كمعادنِ الفضَّةِ والذَّهبِ . خيارُهم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقِهوا " [متفق عليه] .

وفي قول الرسول ﷺ " النَّاسُ معادِنُ " دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية .

ومنها قوله ﷺ " إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ مِن قبضةٍ قبضَها من جميعِ الأرضِ ، فجاء بنو آدمَ على قدْرِ الأرضِ ، جاء منهم الأحمرُ ، والأبيَضُ، والأسودُ، وبينَ ذلِكَ، والسَّهلُ، والحزْنُ ، والخبيثُ ، والطيِّبُ ، وبينَ ذلكَ. " [صحيح الترمذي] .

وعن عبدِ اللَّهِ بنَ مسعودٍ قالَ : " إنَّ اللَّهَ قسَّمَ بينَكم أخلاقَكم كما قسَّمَ بينَكم أرزاقَكُم وإنَّ اللَّهَ يؤتي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ ولا يؤتي الإيمانَ إلاَّ من أحبَّ فإذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا أعطاهُ الإيمانَ فمن ضنَّ بالمالِ أن ينفقَهُ وَهابَ العدوَّ أن يجاهدَهُ واللَّيلَ أن يُكابدَهُ ؛ فليُكثر من قولِ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أَكبرُ والحمدُ للَّهِ وسبحانَ اللَّهِ "

[صححه الألباني]

ولدينا حقيقة ثابتة لابد من ملاحظتها في مجال كلِّ تكليف رباني : هي أنَّ الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فمسئولية الإنسان

تتحصر في نطاق ما يدخل في وسعه، وما يستطيعه من عمل، أما ما هو خارج عن وسع الإنسان واستطاعته، فليس عليه مسئولية نحوه، يضاف إلى ذلك أنَّ نسبة المسئولية تتناسب طردًا وعكسًا مع مقدار الاستطاعة ...

فما كان من الطباع الفطرية قابلاً للتعديل والتبديل، ولو في حدود نسب جزئية، لدخوله تحت سلطان إدارة الإنسان وقدرته، كان خاضعًا للمسئولية، وداخلاً في إطارها تجاه التكاليف الربانية، وما لم يكن قابلاً للتعديل والتبديل، لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته، فهو غير داخل في إطار المسؤولية تجاه التكاليف الربانية .

وبناء على ذلك فإننا نقول وفق المفاهيم الدينية: لو لم يكن لدى كلِّ إنسان عاقل قدرة على اكتساب حدٍّ ما من الفضائل الأخلاقية ؛ لما كلفه الله ذلك .

وليس أمر قدرة الإنسان على اكتساب حدٍّ ما من كلِّ فضيلة خلقية بعيدًا عن التصور والفهم، ولكنه بحاجة إلى مقدار مناسب من التأمل والتفكير.

أليست استعدادات الناس لأنواع العلوم المختلفة متفاوتة، فبعضهم أقدر على تعلم الفنون الجميلة من بعض، وبعضهم أقدر على تعلم العلوم العقلية من بعض، وبعضهم أقدر على حفظ التواريخ والحوادث أو حفظ النصوص من بعض؟

إنه ... ما من إنسان عاقل إلا ولديه قدرة على اكتساب مقدار ما من فضائل الأخلاق، وفي حدود هذا المقدار الذي يستطيعه يكون تكليفه، وتكون مسئوليته، ثم في حدوده تكون محاسبته ومجازاته.

إنَّ أسرع الناس استجابة لانفعال الغضب، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق الحلم، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب ما يستطيعه منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب تنمو نمو أشواك الغاب، فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

وإن أشد الناس بخلاً وأنانية وحبًّا للتملك، يستطيع بوسائل التربية أن يكتسب مقدارًا ما من خلق حب العطاء، ومتى صمم بإرادته أن يكتسب ذلك فإنه يستطيعه، لذلك فهو مسئول عن اكتساب القدر الواجب شرعًا منه، فإذا هو أهمل تربية نفسه، وتركها من غير تهذيب فإنَّه سيحاسب على إهماله، وسيجني ثمرات تقصيره .

والمفطور على نسبة كبيرة من الجبن، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من خلق الشَّجاعَة، قد لا يبلغ به مبلغ المفطور على نسبة عالية من الشَّجاعَة، ولكنه مقدار يكفيه لتحقيق ما يجب عليه فيه أن يكون شجاعًا، وضمن الحدود التي هو مسئول فيها .

وأشد الناس أنانية في تكوينه الفطري، يستطيع أن يكتسب بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم مقدارًا ما من الغيرية والإيثار، قد لا يبلغ فيه مبلغ المفطور على محبة الآخرين، والرغبة بأن يؤثرهم على نفسه، ولكنه مقدار يكفيه لتأدية الحقوق الواجبة عليه تجاه الآخرين .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن أية فضيلة خلقية، باستطاعة أي إنسان عاقل، أن يكتسب منها بالتربية المقترنة بالإرادة والتصميم، المقدار الذي يكفيه لتأدية واجب السلوك الأخلاقي. (١)

---

(١) موسوعة الأخلاق مؤسسة الدرر السنية ١٤٣٦ هـ

كيف يزكي الإنسان نفسه من المعاصي ؟

فإذا عدنا إلى سؤال : هل بمقدور الإنسان أن يزكى نفسه ويطهرها من فجورها ؟

والإجابة بالطبع نعم في وسعه وإلا ما كلَّفه الله تعالى بهذا فالله تعالى لا يكلِّف بمستحيل إنما يكون التكليف في إطار الوسع والمستطاع .
﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

فباستطاعة الإنسان أن يزكى نفسه من شرورها وبمقدوره أن يحليها بمكارم الأخلاق فإن فعل هذا فقد أفلح .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

أي أفلح وفاز من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي .

وكثير من الناس من يعتذر عن سوء خُلُقه بسوء طبعه وأنه هكذا خَلَقَه الله ولا حيلة له في سوء خُلُقه وكأن سوء الخُلُق غريزة تتأبى على المجاهدة والتغيير ، والحقيقة أنه إذا قوى الإيمان في القلب سهل على الإنسان تزكية طبعه الذي جُبِلَ عليه ومجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، أما من ساء خُلُقه فاعلم أنه لا إيمان له ، فبقدر الإيمان يكون حسن الخلق وفي ذلك يقول النبي :

" إنَّ أكملَ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ، وإنَّ حُسْنَ الخلُقِ ليبلغُ درجةَ الصومِ والصلاةِ " [صحيح البزار]

فكمال الإيمان يوجب حسن الخلق .

ولو كان حسن الخلق غريزة لا اكتساب فيها ما أمر الرسول ﷺ به فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : " اتَّقِ اللهَ حيثما كنتُ، واتَّبِعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمْحُها ، وخالقِ النَّاسَ بخُلقٍ حسنٍ "

[رواه أحمد والترمذى والدارمى]

إذن الإنسان بمقدوره تغيير خُلُقَه فعن أبي الدَّرداءِ قال " العِلْم بِالتَّعَلُّم وَالحِلْم بِالتَّحَلُّم وَمِنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوَقَّهُ "

[صححه الألباني]

والله تعالى يعين من يجاهد نفسه ويسعى لتغير خُلُقه : " مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [صحيح أبي داود] .

قال القرطبي : " الخُلُق جِبِلَّة في نوع الإنسان ، وهم في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء منها إن كان محموداً وإلا فهو مأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفا فيرتاض صاحبه حتى يقوى " (١)

وأثبت علم النفس المقارن أن غرائز الإنسان أقل ثباتاً وأكثر قابلية للتغيير عن غرائز الحيوان . وقد باشر الإنسان سلطانه على الحيوانات المتوحشة فصارت بالترويض طيعة مستأنسة . والقرآن من جانبه يقرر قدرة الإنسان المزدوجة على أن يطهر كيانه الجواني أو يفسده ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]

وإذا كانت بعض عناصر الطبع تستعصي على أي تطوير أو تقدم ، فتستبعد من مجال أي إلزام أو مسئولية كأن يكون المرء بطبيعته حزيناً

(١) نقلاً عن ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١٠ ص ٤٥٩

أو مرحاً ، متشائماً أو متفائلاً فهو ليس مسئولاً عن شذوذه النفساني شأن المريض عن عيوبه الجسمانية .

ومهمة الأديان والشرائع أن تجعل صفات النفس في حالة توازن ووسطية حتى تؤدى دورها المنوط بها في عبادة الله وعمارة الأرض فمثلا الإنفاق إن زاد عن حد الاعتدال صار إسرافاً وتبذيراً وإن قل كان بخلاً وتقتيراً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧] .

والحَمِيَّة إن زادت عن حد الاعتدال صارت اندفاعاً وتهوراً وإن قلَّت كانت جبناً وضعفاً ... ، يقول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة : ١٤٣]

فالفضيلة وسط بين رذيلتين . قال مطرف بن عبد الله : الحسنة بين سيئتين.

وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

ولكي يصل الإنسان إلى حسن الخلق الذي جاء الدين به فعليه أن يجاهد نفسه ولا يستسلم لصفات نفسه الدنيئة وبقدر مجاهدته للتخلِّي عن فجور نفسه ومجاهدته للتحلي بالتقوى يكون الأجر والثواب والمنزلة الرفيعة والدرجات ، وبقدر ما يستسلم الإنسان لرغبات نفسه وشهواتها يكون الجزاء والعقاب والمنزلة الوضيعة والدركات .

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الحالات الثلاث : الفقر والغنى والكفاف ، فكان الأول أول حالاته ﷺ فقام بواجب ذلك من مجاهدة

النفس ، ثم فتحت عليه الفتوح فصار بذلك في حد الأغنياء فقام بواجب ذلك من بذله لمستحقه والمواساة به والإيثار مع اقتصاره منه على ما يسد ضرورة عياله، وهي صورة الكفاف التي مات عليها ، وهي حالة سليمة من الغنى المُغَطِّى والفقر المؤلم، وأيضاً فصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا ؛ بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة . [1]

ويجعل النبي ﷺ صدقة الشحيح الذي يخشى الفقر ويرجو الغنى أعظم أجراً من صدقة الكريم الذي لا يخشى الفقر .

فعن أبى هريرة قال : قال رجل يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان "

[متفق عليه]

ويجعل الله تعالى من صفات الإبرار أنهم يطعمون الطعام للمساكين والفقراء والأسرى على شدة حبهم له وحاجتهم إليه وما فعلوا هذا وخالفوا هواهم من أجل ثناء أو شكر أو مصلحة يرجونها من الناس إنما فعلوه لوجه الله تعالى .

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٨-٩]

بل يجعل الله تعالى شرط نوال الإنسان البر هو الإنفاق مما يحب ويحرص عليه .

---

(١) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " ج ١١ ص ٢٧٤ .

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

ويمتدح الله تعالى الأنصار الذي آووا ونصروا وأجاروا المهاجرين وقدموهم على أنفسهم .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

أهناك خلق أرفع من هذا ؟ أهناك خلق أرفع من أن تؤثر أخاك على نفسك فيما أنت محتاج إليه ؟!

ولا توجد نفس بشرية إلا وقد خلقها الله تعالى صالحة لفعل الخير والشر .

وعلى المؤمن الذي ابتلى بصفة ذميمة أن يجاهد هذه الصفة ولا يستسلم لها فيجاهد الجبن بالجهاد في سبيل الله وقول الحق ، ويجاهد البخل بالإكثار من الصدقات ، والأنانية بتقديم يد المساعدة لغيره ففي مجاهدة صفات النفس الذميمة يكون الفلاح والفوز بالجنة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس : ٩] .

ولن يتغلب الإنسان على فجور نفسه إلا بالإيمان القوى بالله والاعتصام بحبله المتين ، ومخالطة أهل التقوى والصلاح ، ومعرفة أن الدين حسن الخلق ، وأن سوء الخلق طريق جهنم وإن صام وصلى ، أما من استسلم لفجور نفسه ولم يجاهد صفات الشر فيها واتبع هواها، وخالط أهل الفسق والفجور فهذا هو الخاسر الخائب .

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ١٠] .

ويجب أن يكون الإنسان متيقظاً لنفسه في كل وقت وحين ، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات .

المقصود بجهاد النفس ؟ وكيفيته ؟

المقصود بجهاد النفس ، جهاد الصفات المذمومة في النفس الإنسانية ولا يقصد به المعنى العام للنفس الذي يعنى ذات الإنسان التي توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها والتي تنقسم إلى : مطمئنة ، ولوَّامة ، وأمَّارة .

يقول النبي ﷺ : " وأَفْضَلُ الجِهَادِ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [صحيح الطبرانى] .

إن مجاهدة النفس أفضل من جهاد الكفار والمنافقين والفجار لأن الشيء إنما يفضل ويشرف بشرف ثمرته وثمرة مجاهدة النفس الهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩] وكفي به فضلاً وقد أمر اللّه بمجاهدة النفس فقال : ﴿وَجَاهِدُوا في اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج : ٧٨] (1)

أما عن كيفية مجاهدة النفس فيكون بإلزامها ما يخالف هواها فإن كانت مُحِبة للمال فأكثر من الصدقة ، وإن كانت مُحِبة للكبر فخالط الفقراء والمسكين ...

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ليْس الشديد بالصُّرعةِ إنّما الشّديدُ الذي يملك نفسه عِنْد الغَضَبِ" [متفق عليه] .

المراد بالشديد هنا: شدّ القوّة المعنوية وهي مجاهدة النفس وإمساكها عند الشر ومنازعتها للجوارح للانتقام ممن أغضبها، فإن النفس في حكم

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٢ ص ٦٣ .

الأعداء الكثيرين، وغلبتها عما تشتهيه في حكم من هو شديد القوّة في غلبة الجماعة الكثيرين فيما يريدونه منه .

وفيه إشارة إلى أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدوّ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوّة. وحقيقة الغضب حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام. والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهدها ويمنعها عما طلبت .(1)

ويضرب رسول الله ﷺ لنا الأمثلة في كيفية مغالبة الطبع السيئ ، فعن أبى هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين " [رواه أحمد] .

وعن ربيعة بن كعب قال كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة . قال أو غير ذلك؟ قلت هو ذاك . قال فأعنى على نفسك بكثرة السجود " [رواه مسلم]

" فأعنِّى على نفسك " أي كن لي عوناً في إصلاح نفسك وجعلها طاهرة مستحقة لما تطلب فإني أطلب إصلاح نفسك من الله تعالى وأطلب منك أيضا إصلاحها بكثرة السجود لله فإن السجود كاسر للنفس ومذل لها وأي نفس انكسرت وذلت استحقت الرحمة والله تعالى .

وهناك قصة جميلة عن الصحابي الجليل ثابت بن قيس فقد كان هذا الصحابي مجبولا على بعض الصفات الذميمة مثل جهر الصوت بحضرة النبي ، وحب السيادة على قومه ، وحب الاختيال والفخر ، وكان الرجل مؤمناً حقاً فظل يجاهد هذه الصفات حتى تخلص منها

(1) الصنعانى" سبل السلام " ج ٤ ص ١٨٣ .

وبشره النبي بالجنة وأكرمه الله تعالى فاستشهد في معركة اليمامة وإليك قصته .

قال عطاء الخراساني: حدثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي﴾
[الحجرات : ٢]

دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره ، فقال : أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال ﷺ : " لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير" . قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور﴾ [لقمان: ١٨] فأغلق بابه وطفق يبكى، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: " لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ". قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتا وقاتلاً حتى قتلاً " [رواه الطبراني] (١)

أرأيتم كيف أن الصحابي الجليل ثابت بن قيس قد جاهد نفسه ولم يستسلم لصفاتها الذميمة فعاش حميداً ومات شهيداً ؟

إجمال الشروط اللازمة لقيام المسئولية أمام الله

إن الشروط اللازمة والكافية لقيام المسئولية أمام الله وأمام أنفسنا هي أن يكون العمل شخصيّاً ، إراديّاً ، ثم بحرية (أي بدون إكراه) وبوعي كامل ، وعن معرفة بالشرع ؛ فالمسئولية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ووظيفيّاً

---

(١) ورواه القرطبى في تفسيره ج ١٦ ص ٣٠٥ .

بالشخصية الإنسانية ، ولا يستطيع أن يتحملها سوى الإنسان البالغ العاقل ، الواعي بتكاليفها التي يتمثلها أمام نظره وقت أداء العمل . فإذا ما تحدد الشخص ، يكون بعد ذلك مسئولاً عن الأفعال التي يؤديها بإرادته الحرة . لأن الإرادة والحرية مترادفان من الناحية العملية . ولا توجد أية قوة في الطبيعة – ظاهرة أو باطنة – تستطيع أن تحرك أو توقف النشاط الداخلي لإرادة الإنسان .

... وأخيراً فإن المبدأ القرآني للمسئولية ذو نزعة فردية ، يستبعد كل مسئولية موروثة أو جماعية بمعناها الحقيقي .

مراتب الناس في قبولها تهذيب الأخلاق

الناس ليسوا سواء بالنسبة لتهذيب الأخلاق وتزكية النفس إنما هم أنواع ومراتب يبينها لنا أبو حامد الغزالي فيقول : " اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

والناس بالنسبة لتهذيب الأخلاق على أربع مراتب :

١- المرتبة الأولى : الإنسان الذي بقي على أصل الفطرة ولم تتسم شهوته باتباع اللذَّات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

٢- المرتبة الثانية : الإنسان الذي عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوَّد العمل الصالح بل زُيِّن له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله

فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه التخلِّي أولاً عن سوء خلقه واعتياد الفساد، ثمَّ التحلِّي بعد ذلك بحسن الخلق واعتياد الصلاح . وهذا الإنسان يمكنه النهوض بذلك إذا جَدَّ في ذلك وعزم عليه عزماً صادقاً .

٣- المرتبة الثالثة : الإنسان الذي يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المُسْتَحْسَنَة وأنها حقٌ وجميل وتربَّى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا في حالات نادرة ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

٤- المرتبة الرابعة : الإنسان الذي يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر وفعل المنكر ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب.

والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثاني: جاهل وضال. والثالث: جاهل وضال وفاسق. والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير. (١)

هل قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكلية واجب ؟

وبعض فاسدي الخُلُق يزعمون أن دعاة إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس يريدون قمع الشهوة والغضب وحب الدنيا بالكليَّة مع أن الشهوة والغضب وحب الدنيا فطرة إنسانية وطَبْعٌ بَشَرِيٌّ لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يَقْمَعَهَا ويمحُوَها بالكلية ، ويرد الغزالي على هؤلاء فيقول : " قولهم إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

لفائدة وهي ضرورية في الجِبلَّة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الجِمَاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك .

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك عن إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحَمِيَّة وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً. وبالجملة أن يكون في نفسه قويّاً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد .

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكُّوا عن ذلك، إذ قال ﷺ " إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ . أَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ . وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ " [صحيح مسلم] . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان ﷺ لا يخرجه غضب عن الحق وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤] ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخُلُق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش. وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدلَّ أن ذلك

ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى : ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١] وقال ﷺ "خيرُ الأمورِ أوساطُها" [وإسناده صحيح موقوف] وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفوا عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين. فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور. والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. (١)

---

(١) أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٥٨ بتصرف .

المقصود بذم الدنيا

وإذا كان هناك من يزعم أن حب الدنيا فطرة إنسانية وطبع بشري لا طاقة لإنسانٍ سويٍّ أن يقمعها ويمحوها بالكلية وقد ذكرنا رد الغزالي على هؤلاء فإن هناك من يدعو إلى ترك الدنيا والتَّفَرُّغ للعبادة ويستشهد بالآيات القرآنية الواردة في ذم الدنيا وكذلك الأحاديث الشريفة في تأكيد ذلك .

والدنيا المذمومة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة هي دنيا الكافر الذي آمن بها وكفر بالآخرة ، ودنيا المسلم العاصي الذي انشغل بها عن الآخرة هؤلاء وأولئك الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : ٣] . ﴿إِنَّ هَـؤُلاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان : ٢٧] . ﴿ كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ [القيامة : ٢٠ – ٢١] .

وتحدَّث القرآن الكريم في كثير من الآيات عن قِصَر الدنيا وسرعة انقضائها، وبيَّن حقيقتها، وحقارة ما فيها من المتاع، وضرب لذلك الأمثال، وبيَّن أن أَجَل الإنسان فيها محدود لا يتقدَّم أو يتأخَّر.

والمتأمِّل في سِيَر الناس في هذه الحياة الدنيا يجد انغماس الناس في ملذاتها وشهواتها، رغم ما ورد في القرآن الكريم من التحذير من الاغترار بها وبمتاعها الزائل، قال سبحانه وتعالى: ﴿لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال عزَّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والمقصود بحب الدنيا المذموم هو الحب الذي يدفع صاحب الدنيا إلى فعـل المحظـورات والمنهيـات، وتـرك القربـات والطاعـات، وفعـل الصالحات، فالمذموم أن تكون الدنيا بالقلب لا باليد.

والمقصود بحب الدنيا أن تكون الدنيا مالكة له ومتصرفة فيه، لا هو مالك الدنيا ومتصرف فيها .

وهنا نريد أن نُنَبِّه على أمر مهم قد غفل عنه كثير من الناس، وهو ما يفهمه بعض الناس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وما ورد عن السلف من ذم للدنيا والتزهيد فيها، والإعراض عنها، بأن المقصود من ذلك هو ترك الدنيا والسعي فيها، والإعراض الكلي عنها، والتزهيد بكل ما فيها.

وهذا الفهم غير صحيح؛ لأن المسلم مطالب شرعاً بالاستخلاف في الأرض وعمارتها، والسعي فيها بل كل ما ينفع الأمة ويخدمها، ويخدم البشرية قاطبة في سائر المجالات العلمية والصناعية النافعة.

فالمقصود أن تجعل الدنيا مزرعة تحصد ثمارها في الآخرة، يصرف الدنيا في طاعة الله تعالى، والعمل الصالح، وعمارتها حسب ما أمر الحق تبارك وتعالى من الاستخلاف فيها، بما ينفع الدين والدنيا.

وهذا الفهم القاصر -للأسف الشديد- أن الدنيا ليست من نصيب المؤمن بل هي من نصيب الكافر، وهي دار له، وليست دار للمسلم لعله من أهم الأسباب التي أدَّت إلى تراجع المسلمين، في سائر الميادين اليوم، وفي شتى العلوم، وما أجمل أن يجتمع في المسلم الدين والدنيا، فيكون ذات دين وخلق، وصاحب مال يستعمله وفق مراد ربه وخالقه، فهذا أمر مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، وبذلك وردت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والدين الإسلامي لا يدعو إلى كبت

الشهوات وقتلها، بل إلى ضبطها وتنظيمها، فهو يراعي الفِطَر، وما جُبِلَ عليه الإنسان من حب المال والبنين. (١)

ومن المفاهيم التي اختلطت على كثير من الناس الفرق بين التوكُّل والتواكل فإذا كان التوكُّل من صفات المؤمنين التي يجب التحلِّي بها فإن التواكل من صفات العصاة التي يجب التخلِّي عنها يقول تعالى : في صفات المؤمنين : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] ويقول تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢]

والتوكُّل معناه صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفع المضار ، وتفويض الأمور كلها لله ، مع الاعتماد أنه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى ، فالمؤمن يتوكَّل على الله عز وجل ويأخذ في الأسباب المؤدية لإتمام الأعمال دون الاعتماد عليها ، فالأخذ في الأسباب لا ينافي التوكُّل أما من يدعي التوكُّل على الله تعالى دون السعي والعمل فليس من التوكُّل في شيء وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا النبي ﷺ منه ومن الأسباب المؤدية إليه؛ فما وصل السلف الصالح إلى ما وصولوا إليه إلا بعلو هممهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسُري ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم .

***

---

(١) خالد حسن محمد البعداني " حب الدنيا وإيثارها على الآخرة " موقع جامعة الإيمان .

العقوبات على جرائم النفس في الدنيا

إن أي قانون وضعي لا يترتب على احترامه أو الخروج عليه جزاء قانون لا قيمة له فالشعور بالمتعة نتيجة لالتزام بالقانون – إن كان للالتزام به متعة – والشعور بالألم، إن نتج عن الخروج عليه ندم ، لا يكفيان لالتزام الناس بالقانون .

وإن كان الأمر بالنسبة للقوانين الإلهية : أوامر الله تعالى ونواهيه مختلف عن القوانين الوضعية فإن طاعة الله والالتزام بأوامره تسعد المؤمن ، والوقوع في المعصية تسوؤه " إذا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وساءَتْكَ سَيِّئَتُكَ ، فَأنتَ مُؤْمِنٌ " [صححه الألباني] .

ولكن الله تعالى لم يترك الالتزام بنظامه الأخلاقي لضمائر الناس وأهوائهم في الدنيا وأخَّر لهم الجزاء في الآخر إنما الله تعالى رتَّب عقوبات دنيوية وأخرى أخروية للمخالفين لأخلاق الإسلام فقد جعل هناك عقوبات دنيوية حتى لا تشيع الفاحشة فمن أمن العقاب أساء الأدب .

لذا جعل الله تعالى بعض العقوبات على بعض الجرائم الأخلاقية التي لو تركت بغير عقاب رادع في الدنيا تفشَّت وأفسدت المجتمع كله ومن تلك العقوبات الدنيوية الحدود التي نص عليها الإسلام وحدد لها نوع العقوبة ومقدارها ، أما الجرائم الأخلاقية الأخرى غير المنصوص عليها في الحدود فقد ترك الإسلام لولي الأمر تحديد العقوبات المناسبة لها فيما يسمى في الفقه بالتعزيرات .

الحدود

تعريفها: الحدود جمع حد ، وهو : الشيء الحاجز بين شيئين.

وفي الفقه عقوبة مقدرة وجبت على الجاني ، وحدود الله تعالى : ما حده بأوامره ونواهيه . (١)

وسميت عقوبات المعاصي الأخلاقية حدوداً ؛ لأنها في الغالب تمنع العاصي من العود إلى تلك المعصية التي حُدَّ لأجلها .

وقد قرَّر الإسلام : الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى " جرائم الحدود " وهذه الجرائم هي : " الزنا، والقذف، والسرقة، والسُّكْر، والمحاربة، والرِّدة، والبغي (القتل) ".

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا، الجلد للبكر (العذراء)، والرجم للثيِّب (غير البكر).

يقول تعالى :﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور:٢]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ " [صحيح مسلم]

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة .

يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

---

(1) مجمع اللغة العربية " المعجم الوجيز " .

وعقوبة جريمة السرقة قطع اليد .

يقول الله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة : ٣٨]

وعقوبة جريمة السُّكر (شرب الخمر)، ثمانون جلدة ، أو أربعون على خلاف بين المذاهب .

وعقوبة الرِّدة القتل، لقول رسول الله ﷺ " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ "

[رواه أحمد والنسائي والبيهقي]

وعقوبة جريمة البغي القتل .

لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

ولقول رسول الله ﷺ : " سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ جَمْعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ " [صحيح النسائي] .

وعقوبة جريمة الفساد في الأرض: القتل، أو الصلب، أو النفي، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣] .

عدالة عقوبات الإسلام على الجرائم الخلقية

وهذه العقوبات بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافظة للأمن العام فهي عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها ، وعدوان على الخلق والشرف والكرامة ، ومقوض لنظام الأسر والبيوت. وعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والإرهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل .

وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التي تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه، وتهدم أركان البيت . فتقرير جلد مقترف هذه الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه عن الإتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما يقذف به، غاية في الحكمة وفي رعاية المصلحة، كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح في سمعته .

والسرقة ما هي إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها. والأموال أحب الأشياء إلى النفوس. فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة، فيأمن كل فرد على ماله، ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه.

والمحاربون الساعون في الأرض بالفساد المضربون لنيران الفتن، المزعجون للأمن، المثيرون للاضطرابات، العاملون على قلب النظم القائمة، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تُفْقِد شاربها عقله ورشده، وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش، فإذا جلد كان جلده مانعاً له من المعاودة من جانب، ورادعاً لغيره من اقتراف مثل جريمته من جانب آخر.

وجوب إقامة الحدود:

إقامة الحدود فيها نفع للناس، لأنها تمنع الجرائم، وتردع، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد، على نفسه،

وعرضه وماله، وسمعته، وحريته، وكرامته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا " [صحيح ابن ماجة والنسائي] .

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد . لذا يَحْرُم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يُعَطِّل حداً من حدود الله، لأن في ذلك تفويتاً لمصلحة محققة، وإغراء بارتكاب الجنايات، ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم، لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم، فلا بأس من التَسَتُّر على الجاني، والشفاعة عنده دون تضييع لحقوق العباد أو استمراء للجريمة .

أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال : " تَعَافُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِى مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ " [صحيح النسائي] .

سقوط الحدود بالشبهات:

الحد عقوبة من العقوبات التي توقع ضرراً في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل استباحة حرمة أحد، أو إيلامه إلا بالحق، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذي لا يتطرق إليه الشك، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعاً من اليقين الذي تتبني عليه الأحكام.

ومن أجل هذا كانت التُّهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها، لأنها مظنة الخطأ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ " اِدْفَعُوا اَلْحُدُودَ، مَا وَجَدْتُمْ لَهَا مَدْفَعًا " [ضعيف ابن ماجة] .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : " ادرءُوا الْحُدُود عَن الْمُسلمين مَا اسْتَطَعْتُم فَإِن كَانَ لكم مخرج فَخلوا سَبيله فَإِن الإِمَام إِنَّ يُخْطِئ فِي الْعَفو خَيْرٌ مِنْ أَن يُخْطِئ فِي الْعقُوبَة " [رواه الحاكم وصححه] (١)

التوبة

والإسلام لا يغلق باب الخير والإصلاح أمام الإنسان المُخْطِئ إنما يفتح له باباً يرجع فيه عما ارتكب من إثم ، ويُكَفِّر فيه عما ارتكب من جرم ، ويصلح ما ارتكب من فساد فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " [رواه الترمذي والحاكم وصححه]

والتوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية ، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى – حتى المثالية منها – فيعرفها د. عبد الله دراز بأنها واجب جديد – فوق مستوى الندم – يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية في الأخلاق الإسلامية . ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل .. مع تكرار جهودنا بلا يأس – من أجل الإصلاح. (٢)

التعزير

والمقصود به في الشرع : التأديب على ذنب لا حَدَّ فيه ولا كفَّارة .

أي أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جناية أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة، أو حدد لها عقوبة ولكن لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل : سرقة مالا قطع فيه، وجناية لا قصاص فيها، وإتيان المرأة المرأة.

([1]) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٣٥٧- ٣٦٠ بتصرف .

([2]) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .

ذلك أن المعاصي ثلاثة أقسام :

١ – نوع فيه حد، ولا كفارة فيه : وهي الحدود التي تقدم ذكرها.

٢ – ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه .

مثل: الجماع في نهار رمضان، والجماع في الإحرام .

٣ – ونوع لا كفارة فيه ولا حد، كالمعاصي التي تقدم ذكرها، فيجب فيها التعزير.

مشروعيته: والأصل في مشروعيته ما رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: " إن النبي ﷺ حَبَسَ فِي التُّهْمَةِ " [صححه الحاكم] .

وإنما كان هذا الحبس حبساً احتياطيّاً حتى تظهر الحقيقة .

فعن هانئ بن نيار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " لا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ ، إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ : لا يُجْلَدُ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى " [متفق عليه]

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يعزر ويؤدب، بحلق الرأس والنفي والضرب، كما كان يحرق حوانيت الخمارين، والقرية التي يباع فيها الخمر. وحرق قصر سعد بن أبي وقاص بالكوفة، لما احتجب فيه عن الرعية . وقد اتخذ درة يضرب بها من يستحق الضرب، واتخذ داراً للسجن، وضرب النائحة حتى بدا شعرها .

وقال الأئمة الثلاثة – غير الشافعي – : إنه واجب . (١)

التعزير من حق الحاكم: والتعزير يتولاه الحاكم، لأن له الولاية العامة على المسلمين .

---

(1) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٨٩، ٥٩٠ بتصرف .

وفي سبل السلام: وليس التعزير لغير الإمام ، إلا لثلاثة :

١ - الأول الأب، فإن له تعزير ولده الصغير للتعليم، والزجر عن سيئ الأخلاق، والظاهر أن الأم في مسألة زمن الصبا، في كفالته، لها ذلك، والأمر بالصلاة، والضرب عليها، وليس للأب تعزير البالغ، وإن كان سفيهاً .

٢ - والثاني السيد، يعزر رقيقه (عَبْدَه) في حق نفسه، وفي حق الله تعالى، على الأصح.

٣ - والثالث الزوج، له تعزير زوجته في أمر النشوز، كما صرح به القرآن .

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء : ٣٤] .

وكذلك يجوز للمعلم تأديب الصبيان .

بشرط ألا يسرف واحد منهم، ويزيد على ما يحصل به المقصود .

فإذا أسرف واحد منهم في التأديب كان متعدياً، وضمن بسبب تعديه ما أتلفه. (١)

شروط التوبة

كلمة التوبة كلمة عظيمة، لها مدلولات عميقة، لا كما يظنها الكثيرون، ألفاظ باللسان ثم الاستمرار على الذنب، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]

تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار .

---

(1) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٩٣ بتصرف.

ولأن الأمر العظيم لابد له من شروط ، فقد ذكر العلماء شروطاً للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، وهذا ذكر بعضها:

الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً .

الثاني: الندم على ما فات .

الثالث: العزم على عدم العودة .

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم .

وذكر بعض أهل العلم تفصيلات أخرى لشروط التوبة النصوح، نسوقها مع بعض الأمثلة :

الأول: أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخر، كعدم القدرة عليه أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً .

فلا يسمى تائباً من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته .

ولا يسمى تائباً من ترك الذنوب لحفظ صحته وقوته، كمن ترك الزنا أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية، أو أنها تضعف جسمه وذاكرته .

ولا يسمى تائباً من ترك أخذ الرشوة لأنه خشي أن يكون معطيها من هيئة مكافحة الرشوة مثلاً.

ولا يسمى تائباً من ترك شرب الخمر وتعاطي المخدرات لإفلاسه .
وقد وصف القرآن اللصوصية التي تستحق قطع اليد ؟ بأنها لصوصية الظلم والإفساد ؟ وقال في هذا السارق المعاقب: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
[المائدة : ٣٨ ، ٣٩]

الحكمة من العقوبات الدنيوية على الجرائم الخلقية

الحد الذي شرعه الإسلام هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم ويقابل إصلاحها بالفساد .

ذلك مثل نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية لم تشرع إكراهاً على الفضيلة وإلجاء للناس بطريق القسوة إلى اتخاذ المسلك الحسنة. فالطريقة المثلى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال ورجعه إلى الله بارئه الأعلى.

بأسلوب من الإقناع والمحبة وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.. ويجب التحكم في ظروف البيئة التي تكتنف الإنسان حتى يُعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة .

ولا حرج من خلع الطفيليات التي لا فائدة منها فنحن في حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطرا فلا وجه استنكار الحدود التي أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة واعتبرت شريعة الأديان السماوية عامة .

والإسلام يُحمل البيئة قسطاً كبيراً من تبعة التوجيه إلى الخير أو الشر وإشاعة الرذائل أو الفضائل. واتجاهه إلى تولى مقاليد الحكم يعود فيما يعود إليه من أسباب ؟ إلى الرغبة في تشكيل المجتمع على نحو يعين على العفاف والاستقامة . (١)

([1]) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢١ .

جزاء الفاسق الذي أفلت من العقوبة

يقول ابن الجوزي : ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب إنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود .

فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ ولو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم .

فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب.

فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم.

وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شيء، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد. (١)

الصبر على البلاء تكفير للذنوب

ومن رحمة الله تعالى أنه يكفر الذنوب بالبلاء يبتليه للعبد في نفسه أو ماله أو عزيز عليه إذا صبر واحتسب ، أو بحدٍّ أو تعزير يحد به أو يعزر فيقول النبي ﷺ : " مَا مِنْ عَبْدٍ ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ فِى الدُّنْيَا إلا بِذَنْبِهِ وَاللهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ عَفْواً مِنْ أَنْ يِسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ يَوْمَ القِيَامَةِ "

[الحاكم في الكنى ، والطبراني عن أبى موسى]

---

(1) تفسير بن كثير ج ٧ ص ٢٠٨ .

فالبلاء في الدنيا دليل إرادة الله الخير بعبده حيث عجل له عقوبته في الدنيا ولم يؤخره للآخرة التي عقوبتها دائمة فهذه نعمة يجب على العبد شكرها وفيه أن الحدود كفارة لأهلها . (١)

وعن علي بن أبي طالب قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] .

وسأفسرها لك يا علي: "مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلاءٍ فِي الدُّنْيَا، فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَاللهُ تَعَالَى أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّى عَلَيهِ العُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ عَفْوِهِ" وكذا رواه الإمام أحمد . (٢)

وعَنْ عَلِيٍّ كذلك عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ " مَنْ أَصَابَ حَدًّا فَعُجِّلَ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الآخِرَةِ وَمَنْ أَصَابَ حَدًّا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ " [صحيح الترمذي] .

فمن ارتكب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا بإقامة الحد عليه أو مصيبة تصيبه، فهذا من كسب يده، أي بسببه هو، ولن يعاقب عليه مرة أخرى في الآخرة، لأنه نال جزاءه في الدنيا . وأما ما أصاب الأنبياء والصالحين فهو للابتلاء وزيادة الأجر، ولتأُسي المؤمنين بهم.

***

(1) الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .

(2) الإمام المناوي " فيض القدير " ج ٥ ص ٦٢٥ .

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " " " "

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

١- الإسلام والعقل الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

٢- الإسلام والنفس الإنسانية . " " " " " " " " "

٣- الإسلام والوجدان .   "   "   "   "   "   "   "   "   "

٤- الإسلام واحتياجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية . " "   " "   " "   "   "

٥- الإسلام والحضارة .   " "   " "   " "   "   "

٦- الأزهر تاريخ من الوطنية والوسطية .   " "   " "   " "   "   "   "

٧- مكانة المرأة بين العادات المجحفة والشريعة المنصفة . " "   " "   " "   "   "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة .   دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو .   دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية   " "   " "   " "   " "   " "   " "

٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي   " "   " "   " "   " "   " "

٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي   " "   " "   " "   " "   " "

٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء   " "   " "   " "   " "   " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .

دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " "   " "   " "   " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " "   " "   " "   "

٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية .   " "   " "   " " " " " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ .
دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل .(سيرة فكرية) " " " " " " " " " " " " " "

٨- حكايات جنود في سيناء . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكاية لكل امرأة وبنت . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص)   دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر ، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

- قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .
- نشرت له جريدة الأهرام العربي سلسلة مقالات عرض فيها أربع كتب :

١- أبو وبكر الصديق ومنزلة الصديقية .
٢- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع .
٣- عبقرية محمد للعقاد .
٤- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة .

التليفون المحمول: ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ -٠١١٤٢٠٤٣٩٤٠

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

ما هي النفس ؟

الموضـوع الصفحة

النفس في القرآن الكريم

ابتلاء الله النفس بالخير والشر

علاقة النفس الإنسانية بالأخلاق

مسئولية النفس الأخلاقية

العقوبات على جرائم النفس في الدنيا

***